الفصل الأول
الانتفاضة وثقافة الجهاد

الفصل الأول
الانتفاضة وثقافة الجهاد

١ـ حوار القرن :

الظاهرة الاستشهادية وثقافة الجهاد فِي فلسطين

كنت أظن أنَّ الفرق بَيْنَ الاستشهاد فِي سبيل الحق الَّذي يفترق افتراقًا بَيِّنًا عَنِ الانتحار أمر بديهي لا يختلف عَلَيْهِ اثنان، ولِذَلِكَ أفزعني أنْ تنوه إسرائيل فِي البداية بأَنَّ هَذِهِ العمليات الاستشهادية هِيَ عمليات انتحارية وأنْ تستكتب بعض الأقلام الإسلامية لتأكيد هَذَا المعنى فتذيع الشك فِي شرعية هَذِهِ العمليات أصلاً.

ومِمَّا زاد البلبلة والاضطراب مَا أدلى بِهِ الإمام الأكبر شيخ الأزهر مِنْ أنَّ المدني فِي كُلٍّ مِنْ فلسطين وإسرائيل، ومَهْمَا كَانَت جنسيته، يتمتع بحصانة خاصة ولا يجوز النيل مِنْهُ تحت أية ذريعة، وإنْ عاد الرجل وأكَّدَ صفة الشهادة لِمَن يقوم بِهَذَا العمل .

ومِنْ ناحية أخرى، ظهرت عقبة ثانية لا تقل إحباطًا عَنِ السابقة الَّتي أكسبتها إسرائيل طابعًا شرعيًّا، وراحت تنشرها حَتَّى تزعزع المستشهد فِي صلب عقيدته بَعْدَ أنْ غزت دوافع الاستشهاد عن الدافع الديني. وهَذِهِ العقبة المحبطة هِيَ : إقدام عدد مِنَ الحكومات العربية بِمَا فِيهَا السلطة الفلسطينية عَلَى إدانة هَذِهِ العمليات. ومفهوم أنَّ دافع الإدانة الَّذي يضع هَذَا المعسكر العربي فِي خندق إسرائيل والغرب هُوألاً تسجل هَذِهِ الحكومات اعترافًا رسميًّا بشرعية قتل المدنيين، ولَمْ يغير مِنْ ذَلِك أنَّ هَذِهِ العمليات وجهت إلَى العسكريين الإسرائيليين، علمًا أنَّ التمييز بَيْنَ المدني والعسكري لَيْسَ واردًا إلا فِي صراع مسلح شبه متكافئ وفِي ميادين القتال، ومَعَ عدو يفهم هَذَا التمييز ودواعيه، وفِي حالة طرف لَدَيْهِ مِنَ الأدوات والوسائل مَا يمكنه مِنَ التأثير عَلَى قوة العدو دُونَ حاجة إلَى الاستشهاد أو استهداف المدنيين .

يُضَاف إلَى مَا تقدم، أنَّ المدني الإسرائيلي لا يختلف عَنِ العسكري الصهيوني، فكلاهما

طرفان فِي مشروع صهيوني، ويعملان لنصرته، كَمَا أنَّ المدني الإسرائيلي هُومصدر الشرعية المتزايد لشارون وسياساته، وبصرف النظر عَنْ أنَّ بعض الضباط الاحتياط قَد أعلنوا مَا يجب أنْ تستمع إلَيْهِ حكومة شارون، بأنَّهُم لَنْ يشتركوا فِي عمليات فِي الأراضي الفلسطينية ولَنْ يشاركوا فِي إذلال شعب بأكمله.

ثُمَّ ظهرت عقبة ثالثة تطور إلَيْهَا الموقف المحيط بالشعب الفلسطيني، وتتمثل فِي أنَّ الاستشهاد والمنظمات المشجعة لَهُ والداعمة لسلكه أصْبَحتَ فِي المذهب الإسرائيلي، ثُمَّ الأمريكي والأُورُبِّي، وأخيرًا العربي ولَوعَلَى استحياء، عملاً إرهابيًّا يتعين وقفه وتعقب المسئولين عَنْهُ، وتفكيك المنظمات الفدائية وتجميد أرصدتها وتجفيف منابع الدعم المادي لَهَا، ووقف الدعم المعنوي لمنطقها ومسارها، بمَا فِي ذَلِك قرارات القمة العربية المؤيدة للانتفاضة والَّتي لَمْ تحدد بشكل خاص العمليات الاستشهادية .

فَإِذَا كَانَت العمليات الاستشهادية ـ عندنا ـ عملاً مِنْ أعمال المقاومة المشروعة حَتَّى لَو ارتكبت داخل إسرائيل وضِدَّ سكانها المدنيين مَا دامت إسرائيل والمستعمرون الصهاينة يستهدفون المدنيين الفلسطينيين ولا يقيمون وزنًا لأرواح البشر، فَإِنَّهُ مِنَ المفيد أنْ نعالج الفوارق الحاسمة بَيْنَ الاستشهاد والانتحار فِي هَذَا المقام .

فَمِنْ ناحية أولى، ومِنَ الناحية الشرعية والقانونية، لا مناص مِنَ التأكيد عَلَى أنَّ المستشهد لَهُ مكانته الخاصة فِي الدنيا والدين، وهُوبنص القرآن الكريم حَيٌّ عِنْدَ ربه يجري عَلَيْهِ رزقه. ولَكِن المستشهد فِي القانون يعامل معاملة الميت مِنْ حَيْثُ الآثار القانونية المترتبة عَلَى الموت فِي مجالات التركة والآثار الاجتماعية وغيرها، فضلاً عَمَّا يلحق سيرته مِنَ التكريم والإعزاز الوطني عَلَى أساس أنَّ الشهداء هم الصف الأول المدافع عَنْ قضية عامة فِي الأغلب الأعم .

وعَلَى الجانب الآخر، فَإِنَّ المنتحر يظل مذمومًا فِي مجتمعه مَا دام قَد تحدى إرادة الله وقَرَّرَ أنَّ الموت بيده ولَيْسَ بيد الله، ومَا دام قَد تمرد عَلَى قدرة الله وقَرَّرَ الخلاص مِنَ الدنيا بأسرها ناقمًا عَلَيْهَا، راغبًا فِي التخلص مِنْهَا، مُدَّعِيًا أنَّهُ تحرر مِنْ قيود الحياة وعبوديتها لَهُ. غَيْر أنَّ

المنتحر الَّذي يثور اللبس حول ظروف انتحاره ومَا لَمْ يقرر هُو بنفسه أنَّهُ مات منتحرًا، لَمْ يجرؤ المشرع عَلَى أنْ يعامله معاملة خاصة فِي الأغلب الأعم مِنَ التشريعات. غَيْر أنَّ المنتحر مَا دام خارجًا عَلَى مقتضى الدين وتعاليمه، فَقَد جفل المشرع عَنْ محاسبته واعتباره فِي حكم المرتد، بحَيْثُ تنطبق عَلَيْهِ قانونيًّا آثار الارتداد، وترك محاسبته لله وحده الَّذي يعلم مَا توسوس بهِ النفوس.

والغريب أنَّ المستشهد يُعْتَبَر عِنْدَ بعض الحكومات العربية إرهابيًّا، وهِيَ صفة أشد إيلامًا مِنْ وصف المنتحر ؛ لأنَّ المستشهد ينال مِنْ سلامة أرواح وأجساد المستهدفين بالعمل الاستشهادي، بَيْنَمَا المنتحر لا يضر أحدًا ولا يوجه عمله ضِدَّ أحد، مِمَّا يدل عَلَى أنَّ مركز المستشهد عِنْدَ هَذِهِ الحكومات أسوأ بكثير مِنْ مركز المنتحر .

غَيْر أنَّنَا يجب أنْ نشير مِنْ **ناحية ثانية**، إلَى أنَّ نفسية المنتحر تختلف اختلافًا فارقًا عَنْ نفسية المستشهد. فالأول : مصابٌ بالإحباط، مريضٌ نفسيًّا، كارهٌ للحياة ومظاهرها، مدبرٌ عَنْهَا، عازفٌ عَن الاستمرار فِيهَا، أمَّا الثاني : فَهُوسليمٌ معافىً، ينبض بالحياة، لا يفر مِنَ الحياة وإنَّمَا يُسَخِّرُهَا لخدمة قضية لَهَا فِي ميزان الشرع حقها وحظها مِنَ التقدير، فَهُويفر مِنَ الدنيا إلَى الآخرة، وهُويستجيب لنداء الله سبحانه فِي القرآن الكريم (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ)(التوبة: الآية١١١)، فَهُو واثق مِنْ وعد الله فِي كتبه الثلاثة المقدسة، ولِذَلِكَ قَرَّرَ أنْ يبيع نفسه لله، ولَيْسَ للشيطان كَمَا يفعل المنتحر الَّذي يخسر الدنيا والآخرة بعمله .

وفِي ضوء ذَلِك يَبْدُو لَنَا أنَّ المستشهد الَّذي يقرر الخروج فِي سبيل الله يخرج حِينَذَاكَ مِنَ الدنيا حَتَّى قبل استشهاده، ويَرَى الجنة رأي العين كَمَا ثبت فِي الأثر. فَهُولا يَرَى أمامه سِوَى هَذِهِ النهاية ويستعذب فِي سبيلها كُلّ الصعاب .

والخلاصة : أنَّ المنتحر والمستشهد يفترقان، الأول : مذموم مصيره النار، والآخر : محمود

يمثل قيمة عليا فِي أي مجتمع، ومصيره الجنة كَمَا وُعِدَ، وهُوحَيٌّ عِنْدَ ربه كَمَا ورد فِـي القرآن الكريم. ولَكِن الَّذي أثار اللبس وشبهة التماثل كَمَا زعمت إسرائيل وغاب عَمَّا ذكرنا فِي صدر المقال أمران : الأمر الأول : أنَّ الاثنين يخرجان مِنَ الدنيا بالموت، والأمر الثاني : أنَّ كلاً مِنْهُمَا مسئول عَنْ إزهاق روحه. ولَكِن الفوارق الدينية والسياسية والاجتماعية والنفسية عَلَى النحوالسابق توضيحه أنَّ لا علاقة بَيْنَ الاثنين، وأنَّ مَا يجمع بَيْنَهُمَا لا يسوي بَيْنَهُمَا أويصلح حَتَّى للمقارنة بَيْنَهُمَا .

والحق أنْ الاستشهاد يثير حمية الوطنية ونخوة الجهاد ويقدم نموذجًا ومثلاً يحتذى به بَيْنَ الشباب. وأعظم درجات الشهادة الموت فِي سبيل كرامة الوطن والدفاع عَن الدين. فلا شَكَّ أنَّ طابور الشهداء الفلسطينيين الَّذِينَ سجلوا ظاهرة جديدة فِي تاريخ النضال مِنْ أجل الحرية، فِي ظروف بالغة السوء سيظل علامة مضيئة فِي تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية .

فَإِذَا كَانَ للشهادة دافعها الديني إذْ يقدم عَلَيْهَا مَنْ عمر قلبه بحب الله والموت فِي سبيله مِنْ بَيْنَ صفوف الحركات والمنظمات الإسلامية عادة، فَإِنَّ الشباب الَّذي قَرَّرَ الاستشهاد خارج هَذِهِ الصفوف بحافز وطني قَد التقى مَعَ الشهيد مِنْ أجل الدين، وضرب الاثنان مثلاً للشباب العربي.

ودلالة الشهادة فِي فلسطين أنَّ الشعب يتمسك بأرضه وكرامته فِي مواجهة الغصب الإسرائيلي، وهَذِهِ الدلالة هامة مِنْ زاوية أخرى، حَيْثُ تشير على أيهما أولى بالأرض، رغم التفاوت الهائل بَيْنَ قرارات الطرفين الفلسطيني الَّذي وضع فِي ظروف بالغة البؤس والضعف مقابل الطرف الإسرائيلي الَّذي يلقى مساندة أقوى قوى العالم .

وقَد سجلت انتفاظة الأقصى ظاهرة الشهادة متفردة فِي تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وهَذِهِ الظاهرة لَو قدر لَهَا الاستمرار فسوف تَكُون سلاحًا ناجحًا ومصدرًا لإفزاع إسرائيل وإشعار شعبها بأَنَّ أمنه لا يُمْكِن أنْ يقوم عَلَى إبادة الشعب الفلسطيني، وأنَّ السلام الحقيقي والأمن للجميع هُو الحل الصحيح لمعادلة الأمن فِي فلسطين .

ولَعَلَّهُ مِنَ الغريب أنْ تحمّل السلطة الفلسطينية مسئولية استشهاد الشباب الفلسطيني الَّذي ضحى بروحه فِي سبيل وطنه، وكَأَنَّ الشهادة قرار سياسي. فلابد أنْ تدرك إسرائيل أنَّ سبب الاندفاع إلَى الشهادة هُوَ تصرفات إسرائيل وجبروتها وعزل الشعب الفلسطيني وتجويعه وإذلاله.ومعنى ذَلِك أنَّ وقف هَذِهِ السياسات هُومفتاح الحل لوقف العمليات الاستشهادية، ولَيْسَ العكس .

وقَد يَكُون سبب اللبس بَيْنَ الاستشهاد والانتحار راجعًا إلَى : الإطار الثقافي والانتماء إلَى ثقافات تنظر إلَى الموت مِنْ أحد الطريقين نظرة واحدة مَا دام الموت نهاية للحياة. بصرف النظر عَنِ القضية، أوالطريقة الَّتي لابست هَذَا الموت .

فالثابت لَدَى كُلّ الثقافات ذَاتَ الخلفيات الدينية أنَّ الموت دُونَ الوطن أودفاعًا عَنْ حَقٍّ أوقضية نبيلة يعني الشهادة تَمَامًا مِثْلَمَا مات البعض لمجرد انتمائه إلَى دين معين عَلَى النحو الَّذي نراه فِي التطهير العرقي لأسباب دينية فِي البوسنة وكوسوفا، وكَذَلِكَ شهداء الاضطهاد الديني فِي كُلِّ الأديان عَلَى مر العصور، ومثلهم شهداء الحركات الوطنية الَّذِينَ ماتوا وهم يدافعون عَنْ حقوق شعوبهم فِي الحياة الحرة الكريمة .

ومعنى ذَلِك أنَّ مفهوم الشهادة قَد ينبثق مِنْ أصل ديني، كَمَا قَد يستند إلَى أسباب غَيْر دينية، لَكِنَّهَا عَلَى الجملة تميز بَيْنَ المستشهد والمنتحر الَّذي يتخلص مِنْ حياته هروبًا مِنْ مواجهة الواقع ويأسًا مِنْ رحمة الله وتحديًا لقدره وحكمه فِي خلقه .

فَقَد اعترف الكثيرون مِمَّن تأملوا ظاهرة استشهاد الفلسطينيين بأَنَّ هَذَا المسلك لَهُ أسباب سياسية أيْضًا، أهمها الاحتجاج عَلَى العجز فِي مواجهة الظلم والإجحاف والبطش الإسرائيلي والإذلال اليومي للشعب الفلسطيني .

كَمَا لاحظ المراقبون أنَّ هَذَا هُو نفس سلوك اليابانيين الَّذين ألقوا بأنفسهم عَلَى الآليات الأمريكية،وهَذَا يختلف عَنْ أسلوب الكاميكاز الَّذِينَ عبروا عَنْ احتجاجهم عَلَى استسلام اليابان للولايات المتحدة والانصياع لسياسة الإذلال والتهذيب الَّتي فرضتها واشنطن وطبقها الجنرال ماك أرثر .

وبهَذِهِ المناسبة، فَمِنَ الظلم أنْ يَتِمّ التشبيه فِي أجهزة الإعلام حَتَّى المحايدة مِثْل الإعلام الفرنسي بَيْنَ الكاميكاز الياباني والاستشهاد الفلسطيني، بِحَيْثُ استخدم لفظ كاميكاز للدلالة عَلَى الاستشهاد. ولَمْ يعنَ الإعلام العربي والإسلامي ببيان الفارق فِي البعد الثقافي والمعرفي بَيْنَ الكاميكاز وهُو انتحار بِكُلِّ معنى الكلمة لأنَّهُ إقدام الإنسان عَلَى قتل نفسه بطريقة معينة صارت علمًا عَلَى حالة الانتحار ذاتها احتجاجًا عَلَى موقف حكومته ويأسًا مِنَ القدرة عَلَى تعديله. ويلحق بِهَذِهِ الحالة القتل الإشفاقي الَّذي أباحته بعض التشريعات الأُورُبِّيَّة للمريض الَّذي لا يرجى برؤه ويشق عَلَيْهِ وعَلَى ذويه استمرار مرض لا شفاء مِنْهُ. فكلاهما : الكاميكاز والقتل الإشفاقي، انتحار لا يلتقي أبدًا مَعَ نبل الشهادة وعظم قدرها .

وأخيرًا : فَإنَّ الشهيد يتمنى أنْ ينازل أعداءه ويعود سالمًا بدليل أنَّهُ يحاول الفرار مِنَ الموت بَعْدَ تنفيذ عمليته، فَإذَا كَانَ عَلَيْهِ أنْ يطلق النار عَلَى الإسرائيليين أويزرع عبوة فِي هدف أويهاجم معسكرًا أومستوطنة، فَإنَّ موته محقق لأنَّ البوليس الإسرائيلي يهم بقتله بدلاً مِنَ اعتقاله ومحاكمته، لا فرق فِي ذَلِك بَيْنَ أنْ يقتل غيره بتفجير نفسه، أوأنْ يسبب الموت لغيره والسعي مِنْ أجل نجاته .

٢ـ هَل تصلح المقاومة السلمية فِي فلسطين ؟

يتردد الآن بقوة أن المقاومة الْمُسَلَّحَة لإسرائيل تُؤَدَّى إلى رَدَّ فعل غاشم يقضي عَلَى مدن بأكملها، كَمَا أن العمليات الاستشهادية داخل إسرائيل تواجه بردود فعل حكومية وفي بعض أوساط المثقفين فِي العالم العربي وخاصة مِن جانب السلطة الوطنية الفلسطينية، وتتراوح هَذِهِ الردود بَيْنَ ثلاثة اتجاهات :

الاتِّجَاه الأول يَعْتَبِرُ هَذِهِ العمليات أعمالاً إرهابية وأن المنظمات الَّتِي ترتب لَهَا هِيَ منظمات إرهابية كَذَلِكَ ويجب تفكيكها وتجريم أنشطتها والاستيلاء عَلَى أرصدتها وهذا الاتِّجَاه هُو الَّذِي تدافع عَنْهُ واشنطن وإسرائيل وتستجيب لَهُ السلطة الوطنية الفلسطينية.

أمَا الاتجاه الثاني : فيذهب إلَى أن هَذِهِ العمليات أعمال عنف وأنها أعمال انتحارية وهذا هُو الاتِّجَاه الَّذِي تَبَنَّتْهُ قمة شرم الشيخ الثلاثية: المصرية السعودية السورية، كما أنَّهُ رَأيُ الحكومات العربية بشكل عام.

وأما الاتِّجَاه الثالث : فيرى أن هَذِهِ العمليات تعد ردًا عَلَى أعمال الإبادة الإسرائيلية ولكن توقيتها أوتوجيهها ضِدَّ مدنيين يُؤَدَّى إلَى ردود فعل دوليَّة تقلص التعاطف مَعَ الفلسطينين. وداخل هَذَا الفريق هُنَاكَ مِن يَرَى أن المدني عَلَى الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي يجب أن يتمتع بالقداسة والحصانة. مُؤَدَّى كُلّ الاتجاهات المتعاطفة مَعَ المقاومة الْمُسَلَّحَة أو العمليات الاستشهادية ولكنها تُبْدَى الإشفاق عَلَى الشعب الفلسطيني مِن ردود الفعل الإسرائيلية أو الدوليَّة، أو تِلْكَ الَّتِي تعارض هَذِهِ الأعمال وتدينها وتقف ضدها، فَإن هُنَاكَ اتجاهًا بديًلا يركز فِي وضوح عَلَى استبدال المقاومة الْمُسَلَّحَة بمقاومة سلمية كتلك الَّتِي قادها المهاتماغاندى فِي الهند قبل استقلالها فِي أواخر الأربعينيات، حَيْثُ تبَنَّى غاندى خطًا مناهضًا للعنف، يفضل كُلّ وسائل المقاومة السلمية المعروفة فِي اللغة الهندية باسم " ساتيا جراها" وترتكز هَذِهِ الوسائل عَلَى المقاطعة البريطانية ورفض التعامل مَعَ الجيش البريطاني فِي الهند والعصيان المدني

الشامل، ورفض الخدمة لَدَى السلطات البريطانية أوتلقي التعليم فِي المدارس البريطانية. فَهَل تصلح هَذِهِ الوسائل للمقاومة فِي فلسطين؟

نَحْنُ نَرَى أن كُلّ المقولات النظرية يجب الالتفات الكامل لَهَا بالمناقشة والتحليل، والحكم عَلَى مَدَى صلاحية الوسائل السلمية مِثْل تِلْكَ السالف استخدامها فِي الهند ضِدَّ الاستعمار البريطاني يتطلب مقارنة الأوضاع فِي فلسطين بالأوضاع فِي الهند فِي منتصف أربعينيات القرن العشرين.

فالمعلوم أن بريطانيا العظمى كَانَت تحتل الهند مُنْذُ بداية القرن السادس عشر مِن خلال شركة الهند الشرقية البريطانية الَّتِي مهدت لِهَذَا الاحتلال العسكرى الَّذِي كَانَ يَعْتَبِرُ الهند " درة التاج البريطاني" لَمَا لَهَا من أهمية اقتصادية واستراتيجية وتجارية فِي إمبراطورية مترامية الأطراف عَلَى امْتِدَاد المعمورة كانت بريطانيا تفخر بأنها الإمبراطورية الَّتِي لا تغرب عَنْهَا الشمس والحق أن الدعوة إلَى إنهاء الإستعمار البريطاني فِي الهند لَمْ تتكثف إلاَّ خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها مباشرة عِنْدَمَا ظهر أن بريطانيا تمثل إلَى الأفول وتتجه إلَى الضعف وعدم القدرة عَلَى استمرار التزاماتها العالمية.

كذلك نجحت بريطانيا فِي تأصيل النظام الديمقراطي فِي الهند وقدمت بريطانيا نَفْسَهَا كنموذج فِي هَذَا المجال ولذلك التزمت السلطة البريطانية الَّتِي كان يرأسها عادة حاكم بدرجة نائب الملك بقواعد للسلوك مَعَ الهنود، وهى تعلم أَنَّهَا سلطة مستعمرة وأن استمرارها مشكوك فِيهِ، لِذَلِكَ كَانَ يَكْفِي أن يعلن الشعب الهندي رغبته بالوسائل السلمية بِأَنَّهُ لا يرغب فِي استمرار الاستعمار حَتَّى تقرر السلطة البريطانية مَا يناسب ذَلِك مِن إجراءات. يُضَاف إلَى ذَلِك أن السلطة البريطانية لَمْ تَكُن تمارس قمعًا، ولم يَكُن لَهَا مطمع فِي البقاء الأبدى مِثْلَمَا فعلت فرنسا مثلاً فِي المستعمرات الفرنسية خَاصَّة فِي الجزائر. ومن الواضح أن مقاطعة السلطة البريطانية مِن شعب يربو عدده عَلَى ٣٠٠ مليون نسمة فِي ذَلِك الوقت يشل السلطة تمامًا ويمثل ضغطًا حقيقيًا عَلَى القرار البريطاني.

فَإِذَا انتقلنا إِلَى الوضع فِي فلسطين اتضح أن إسرائيل لَيْسَت بريطانيا سواء فِي وزنها فِي العالم وحرصها عَلَى مكانتها أوفِي فلسفة وجودها خارج حدودها. فالمعلوم أن إسرائيل نشأت فِي فلسطين وهى تُصِرّ عَلَى أن إسرائيل هِيَ كُلّ فلسطين، ولذلك فَإِن مَا تحتله مُنْذُ عام ١٩٦٧ مِن أراضٍ فِي فلسطين لا يجوز الجلاء عَنْهُ مَا لَمْ يَكُن بمقابل فِي مجال الأمن الإسرائيلي وحتى دُونَ انسحاب حقيقي فبريطانيا لَمْ تذهب إِلَى الهند لتدعى أَنَّهَا أحق مِن الهنود فِي بلادهم كَمَا هو حال إسرائيل فِي فلسطين.

ومن ناحية أُخْرَى، فَقَد جرَّب الفلسطينيون كُلّ وسائل التسوية السياسية لإجلاء المحتل عَن ٢٢ ٪ مِن مساحة فلسطين التاريخية ولم يحصلوا إلاَّ عَلَى الفتات الذى سمحت بِهِ إسرائيل ثُمَّ أعادت التهامها عِنْدَمَا حان الوقت لذلك. وإذا كَانَ الهنود يناهضون استمرار الاستعمار، فَإِن الفلسطينيين لا يعارضون فقط استمرار الاحتلال، بل يواجهون فِي نفس الوقت سياسة إسرائيلية منظمة لإبادتهم وتدمير مصادر عيشهم وتقطيع أوصال القرى والمدن الفلسطينية وخنق الفلسطينيين والتضييق عليهم واغتيال نشطائهم بمساندة أمريكية كاملة وما يترتب على المساندة الأمريكية مِن تداعيات فِي العالم كله لصالح المحتل الغاصب.

فسلطات الاحتلال لا تعتمد فِي شئ عَلَى الفلسطينين حَتَّى يقال إن الإضراب والمقاطعة والعصيان يُمْكِن أن يؤثر عَلَى هَذِهِ السلطات أوأن يوقف سياسة الإبادة المنهجية وحتى الفلسطينيون الذين كَانُوا يعملون فِي المستعمرات وداخل إسرائيل لَمْ يؤثر وقفهم عَن هَذَا العمل عَلَى إسرائيل نَفْسَهَا، بَلْ أعتقد أَنَّهُ أثر عَلَى دخول الفلسطينيين الَّذِينَ اعتمد عشرات الآلاف مِنْهُم عَلَى فرص العمل لَدَى الإسرائيليين نظرًا لحاجة إسرائيل إِلَى أيد عاملة غَيْر فنية رخيصة ومتاحة حَيْثُ يعمل هؤلاء فِي إسرائيل نهارًا ثُمَّ يعودون ليلا إِلَى مساكنهم فِي الأراضي الفلسطينية. ولوافترضنا جدلا أن السوق الفلسطينية تعتمد عَلَى الصادرات الإسرائيلية أوالعكس، وهذا غَيْر صحيح، فَإِن السوق الفلسطينية محدودة غَيْر مؤثرة بخلاف مئات الملايين فِي الهند إزاء السلع البريطانية، وحاجة سلطات الاستعمار إِلَى عشرات الألوف مِن العاملين والموظفين من الهنود ولا يعقل أن تنقل مِن لندن هَذَا العدد إِلَى أقاصى الأرض، بَلْ العكس، وقد شهدت

المرحلة الاستعمارية حركة الهجرة الهندية قبل تقسيم شبه القارة الهندية عام ١٩٤٧ إلى بريطانيا لحاجة المجتمع البريطاني إلى هذه النوعية من المهاجرين وأصبح للجالية الهندية والإسلامية دورها البارز في الاقتصاد والسياسة والإعلام والتعليم في المجتمع البريطاني المعاصر.

معنى ذلك أن غاندى كشخصية متميزة لشعبيته الهائلة وظروف المقاومة التي قادها محليًا ودوليًا، وبريطانيا لظروفها التي شُرِحت وكونها في نهاية المطاف قوة استعمارية مصيرها إلى الرحيل بخلاف الظاهرة الاستعمارية الصهيونية لا تزال تُؤَكِّد زعمها في فلسطين دُونَ الاعتراف لأهل فلسطين أصحاب الأرض تاريخيًا بأي حَقّ للعيش معهم أوإلى جوارهم بحَيْثُ أَصْبَحَ الصِّرَاع لا يقتصر على تقسيم الأرض، ولكنه في الواقع صراع عَلَى البقاء، أوكَمَا تقول المصادر الصهيونية: إن الصِّرَاع يتحول من صراع وجود إلى صراع حدود. وهذا غَيْر صحيح، يريدون الحدود والوجود دُونَ غيرهم.

وإذا كَانَت المقاومة لِكُلِّ صور الاحتلال والاستعمار قَد تَأَكَّدَت بشكل خاص في أعقاب الحرب العالمية الثانية وخلالها لدعم المقاومة الأُورُبِّيَّة للاحتلال الألماني والإيطالي، فَلَمْ تَكُن أُورُبَّا في ذلك الوقت مستعمرة للاعتراف بشرعية المقاومة الْمُسلِحَّة للهنود ضِدَّ بريطانيا خَاصَّة أن الاستعمار البريطاني كَانَ استعمارًا سلميًا عَلَى خلاف الاحتلال الإسرائيلي الطامع الغاشم الَّذِي يهدف إلى اقتلاع صاحب الْحَقّ من خلال كُلّ صور الإبادة، فالمقاومة الفلسطينية مشروعة سواء كَانَت سياسية أوعسكرية وحقها في الحصول عَلَى السلاح يترتب عَلَى الاعتراف بشرعيتها. وقد سبق لَنَا التأكيد على شرعية مقاومة المحتل ومستعمراته داخل الأراضي الفلسطينية. أما داخل إسرائيل وإزاء عدو لا يحترم قانونًا ولا يقيم وزنًا لأخلاق أودين فيجب أن نفرق بَيْنَ مبدأ تقديس الاستشهاد وهوأعلى وأنبل صور الفداء، ولا يملك أحد أن يزكي صاحب الشهادة فَهُو سبحانه الَّذِي يقرر لَهُ مكانه ومكانته بَعْد أن يغادر دنيانا فلا يملك أحد أن يمد حكمه عَلَى مَا وراء هَذِهِ الدنيا، وبين سياسة الاستشهاد أي النظر إلى الشهادة على أَنَّهَا جزء من أدوات وسياسة المقاومة تخضع لقرارات الأجهزة الَّتِي توجه المقاومة ميدانيا وسياسيا وإعلاميا، فإدارة عمليات الاستشهاد مسألة تنظيمية وسياسية، إن صَحَّ التعبير، من حَيْثُ تقريرها أودافعها أو

تطويرها أوتوقيتها، ولكن الاستشهاد فِي ذاته لا يلتبس مطلقا بجريمة الانتحار، ففرق عظيم بين مِن آمن بوعد الله فلبى النداء، وبين مِن يئس مِن رحمة الله فقرر أن يمارس إحدى سلطاته فِي الإماتة والإحياء، فالأول شهيد والثاني منتحر. وفرق كبير بَيْنَ مِن يبذل روحه فداء لدينه ووطنه وبين إرهابي يعبث بأرواح الأبرياء لدوافع سقيمة. نخلص مِمَّا تقدم إلَى أن المطالبة بأن يمارس الشعب الفلسطيني المقاومة بوسائل سلمية كَمَا فعل نهر وتغفل - دُونَ قصد - الفوارق العديدة بَيْنَ الاستعمار البريطاني لقارة واسعة الأرجاء فِي ظروف معينة، وبين إسرائيل الطامعة فِي الأراضي ذاتها وسياسة الإبادة الَّتِي يمارسها جيش الاحتلال، فَهُو أبغض احتلال عرفه التاريخ الطويل للبشرية.

٣ـ سياسة الإبادة الإسرائيلية

والخط الفاصل بين المقاومة والتسوية

لَمْ يَعُد هُنَاكَ أدنى شَكٍّ للعالم كله أنَّ إسرائيل لا تريد سلامًا، وإنَّمَا هِيَ تريد أنْ تثبت أنَّ الإبادة العمياء بقوتها الغاشمة الخرقاء وبموافقة أمريكية وفُرْجَة عالمية هِيَ : حَقٌّ مشروع للقوى الباطشة فِي النظام الجديد. ذَلِك أنَّ الهجوم عَلَى الشعب الفلسطيني فِي كُلِّ فلسطين ليل نهار بِكُلِّ أنواع الأسلحة وإبادة الجميع حَتَّى المرضى والشيوخ والأطفال لا يُمْكِن أنْ يحل عقدة شارون وكُلّ ساسة إسرائيل. فَقَد كشفت الأحداث مُنْذُ بداية مارس ٢٠٠٢ م عَلَى الأقل ومَا سطرته عدسات التليفزيون تنفيذًا لقَسَمِ شارون بأَنْ يجعل الموت أمام كُلّ فلسطيني حَتَّى يتوسل هَذَا الشعب الرحمة بِهِ والقبول بكُلِّ مَا يراه هَذَا السفاح الكبير، عَنْ عدد مِنَ الحقائق الخطيرة الَّتي لَمْ يَعُد مِنَ الممكن إنكارها :

الحقيقة الأولى : أنَّ هجوم دَوْلَة كاملة مدججة بِكُلِّ الأسلحة وبرخصة مفتوحة مِنْ أقوى قوى النظام الدُّوَلِي، عَلَى شعب : مُحَاصَر، جائع، أعزل، والإعلان مقدمًا عَنْ برنامج إبادته تحت سمع وبصر العالم لا يُعَدُّ بطولة تُحْسَب لِهَذَا الجيش الجبان، لَكِنَّهَا مذبحة علنية للشعب الفلسطيني، ووصمة عار عَلَى جبين المجتمع العربي والدُّوَلِي بأسره .

ثانيًا ـ أنَّ هُنَاكَ مِنَ الأدلة عَلَى التواطؤ عَلَى إبادة الشعب الفلسطيني، وأهمها إصدار محكمة العدل الدَوْلية لحكم طعين فِي ٢٠٠٢/٢/١٤ يجعل لعضو الحكومة الَّذي يرتكب جرائم حرب أنْ يحتمي بحصانة الدَّوْلَة وأنْ يفلت مِنَ العقاب، فِي الوقت الَّذي تتجه فِيهِ إرادة المجتمع الدَوْلي إلَى محاكمة حاسمة لسفاح الصرب ميلوسوفيتش، وبَعْدَ أنْ أكَّدَ القضاء البريطاني عام ٢٠٠٠ فِي قضية بينوشيه أنَّ حصانة رئيس الدَّوْلَة لا تحول دُونَ محاكمته عَنْ جرائمه، وفِي الوقت الَّذي يحث المجتمع الدَوْلي الْخُطى نحو إنشاء المحكمة الجنائية الدَوْلية الَّتي يُؤَكِّد نظامها الأساسي هَذِهِ القواعد الَّتي جاهد المجتمع الدَوْلي مُنْذُ الحرب العالمية الثانية لتأكيدها .

ومؤدى هذا الموقف الغريب من جانب محكمة العدل الدولية أن القضاء البلجيكي قد أجل

النظر في مدى اختصاصه في نظر الدعوى ضد السفاح شارون، وكأن ما يقوم به حتى الآن على ملأ من العالم كله ليس كافيا بعد صبرا وشاتيلا لتجريمه. ولا شك عندي : في أن موقف محكمة العدل الدولية وما ترتب عليه من موقف القضاء البلجيكي قد أغرى شارون بالمضي دون وجل في برنامج الإبادة ضد الشعب الفلسطيني. ومع ذلك يجب أن تسجل جميع جرائم شارون في يوميات الانتفاضة، فإن عدالة السماء أمضى من عدالة الأرض .

ثالثا ـ إذا كانت الولايات المتحدة لا تزال تصر على إبادة الشعب الفلسطيني على النحو الذي تقشعر له الأبدان، وأن الرئيس بوش يتفهم حرص صديقه شارون على الدفاع عن شعبه، وإذا كانت واشنطن تبشر بهذا النوع من العدالة العرجاء، فإن هذا الموقف بالذات سوف ينال كثيرا من مكانة الولايات المتحدة في العالم العربي والعالم. ومعنى ذلك أن تحرك الولايات المتحدة صوب ما تسميه السلام لن يكون سوى لمزيد من إفناء الشعب الفلسطيني ووضعه في متحف التاريخ، كما أن هذا الموقف يجعل حملتها المزعومة لمكافحة الإرهاب لا تنطلي على أحد، ما دامت هي نفسها قد فقدت مصداقيتها الأخلاقية والسياسية للقيام بأي دور أقل من ردع صديقها السفاح التاريخي .

رابعا ـ تركت عمليات الإبادة الإسرائيلية ضد الشعب البريء الأعزل سيئ الحظ شكا عميقا تجاه كل ما يصدر عن إسرائيل التي أعلنت رسميا أنها تسعى إلى سلام إسرائيلي **Pax Israeliana** يعكس قوة إسرائيل وجبروتها بالمقارنة بقوة الشعب الفلسطيني. ومعنى ذلك أن إسرائيل لن توافق مطلقا على ما كانت قد وافقت عليه من قبل، فجميع المعطيات الفلسطينية والعربية والأمريكية قد تغيرت لصالح إسرائيل. وأخشى أن الشعب الإسرائيلي الذي يساند حكومته كلما أوغلت في أعمال الإبادة سوف يجد صعوبات هائلة في التعايش مع الشعوب العربية التي تراقب مذهولة وتستخلص لنفسها نوعية هذا الشعب وما تمثله الدولة العبرية حقا على المنطقة .

خامسا ـ أصبح من العبث القول بأن المشكلة في شارون، ذلك أن حكومة الوحدة الوطنية تضم أقطاب عالم السياسة اليهود، والإجماع منعقد بينها على خط شارون الذي يعتقد هؤلاء أنه

سوف يجلب الأمن الكامل للمواطن الإسرائيلي، وذلك وهم كبير، وشهادة بلا مسئولية ولا مصداقية سياسية في إسرائيل. ناهيك عن مناورات بيريز الذي يلعب اللعبة بطريقته ليصب في خانة شارون، وقد نجح بالفعل في إيهام بعض الأوساط العربية بأنه وقد زامل رابين ربما لا يزال يعبر عن خط معقول، فلا فرق عندي : بين صقور وحمائم، ولا عبرة عندي ببعض الاعتراضات الهزيلة داخل المجتمع الإسرائيلي، إذ يبدولي : أن إسرائيل تحارب آخر معارك وجودها قبل أن تنتهي كظاهرة تاريخية. إنه ليشرف تاريخ الفلسطينيين أن يدفنوا في أرض أجدادهم، بينما لا يشرف قتلى الإسرائيليين أنهم يموتون غرباء ضحية تضليل صهيوني كبير ضمن أكبر حملة إبادة في التاريخ ضد أصحاب الأرض .

سادسا ـ أصبح من الضروري إعادة تعريف وضبط المصطلحات. فمن الظلم للشعب الفلسطيني أن نطلق على ما يحدث له " العنف المتبادل " أوالصراع الفلسطيني الإسرائيلي، وإنما الصحيح أن ما يحدث هو أعمال إبادة إسرائيلية منظمة ومبرمجة، تقهر بالموت والاغتيال والتمثيل بالجثث وتدمير عربات الإسعاف وقتل الجرحى إرادة الحياة لدى هذا الشعب الأبي المناضل. ولا أظن: أن دولة في التاريخ مثل إسرائيل اتسمت بهذا السلوك البربري الوحشي، كما لا أظن: أن شعبا رفض الاستسلام رغم كل شيء مثل الشعب الفلسطيني .

سابعا ـ قد تدعي إسرائيل أن دافع عمليات الإبادة التي تقوم بها، امتهانا لكل قواعد القانون وقواعد الصراع، هو الهوان الذي لاقته على أيدي المقاومة والعمليات الفدائية في قلب المدن الإسرائيلية الرئيسية، فكان الانتقام الجماعي الباطش الكثيف هو محاولة لإشفاء الغليل وإسكاتا لأي نبض فلسطيني. ورغم أن في هذا القول إغفالا كاملا لبديهيات الموقف، وهوأن الاحتلال وسياساته كان يجب أن تنتهي حتى دون تفاوض مع الشعب المحتل، وأن مقاومة هذا الاحتلال الذي أجهض كل محاولات إنهائه سلميا هي حق مشروع للشعب المحتل، وأنه إلى أن يزول الاحتلال فإن سلوك سلطات الاحتلال تحكمه قواعد القانون الدولي، فإن ترويج المنطق الإسرائيلي والقبول الأمريكي به سوف يشيع حالة من الفوضى وإغفال القانون، بل ربما يهدد ذلك بنشأة قانون الغاب الذي عانت منه البشرية ردحا طويلا من الزمان .

ومِنْ ناحية أخرى، فالمفهوم أنَّ المقاومة أيًّا كَانَ مستواها هِيَ مجرد تعبير بِكُلِّ صورها عَنْ رفض الاحتلال، وقَد كَانَت الرسالة واضحة طوال الشهور الأولى للانتفاضة، وكَانَ يتعين عَلَى إسرائيل أنْ تأخذ ذَلِك فِي الاعتبار، فَلَيْسَ معقولاً أنَّ هدف الانتفاضة هُوتحرير فلسطين، وإنَّمَا هدفها أنْ تجعل استمرار الاحتلال قرارًا محفوفًا بالمخاطر السياسية والأمنية. وقَد كَانَ ذَلِك دَائِمًا هُوحال حركات التحرر الوطني عبر التاريخ، ولَكِن الفارق الرئيسي بَيْنَ المقاومة الفلسطينية والحركات الأخرى أنَّ تِلْكَ الأخيرة كَانَت تواجه شعوبًا متحضرة دخلت فِي صناعة القرار عِنْدَمَا وصلت حركات التحرير إلَى درجة معينة مِنَ الصمود ؛ فأُرغمت حكوماتها عَلَى منح الاستقلال، وَالأمر بالغ الاختلاف فِي حالة المجتمع الإسرائيلي الَّذي يكتب بيده وسياساته وثيقة فنائه بمقياس التاريخ الَّذي لَمْ يخطئ .

وَمعنى ذَلِك أنَّ تصدي جيش الاحتلال بِكُلِّ الأسلحة للمقاومة الفلسطينية ولِكُلِّ الشعب الفلسطيني لَيْسَ فِي إطار صراع سياسي، وإنَّمَا هُو جزء مِنْ برنامج لإبادة الشعب الفلسطيني صاحب الحق فِي كُلِّ الأرض .

وَمعنى ذَلِك أيْضًا أنَّ التدخل بالتسوية السياسية كَانَ يجب أنْ يَتِمَّ فِي مراحل مبكرة وألاَّ يترك الميزان بيد إسرائيل، لأنَّ تصرفات إسرائيل قَد جعلت التسوية السياسية ولحظة إدخالها أمرًا بالغ الدقة، ورسمت علامات استفهام كبيرة عَلَى جدوى كُلِّ المبادرات الْمُقَدَّمَة والَّتي تعتبر إسرائيل دَوْلَة عادية تفكر بمنطق السلام العادي، وتريد أنْ تعيش فِي منطقة زرعت هِيَ بنفسها فِيهَا كُلَّ أشواك التعايش .

وأخيرًا: إنَّ السلام لا تصنعه معاهدات الحكومات قفزًا فوق تجارب الشعوب، ومِنَ الخطر أنْ يُفَسَّر سكوت الشعوب العربية أمام نحر الشعب الفلسطيني والصمت المخيف الَّذي يلف المسرح عَلَى أنَّهُ إشارة تشجيع للمضي فِي سلام رسمي، بَيْنَمَا تقطر يد شارون بدماء الأبرياء والمجاهدين .

٤ـ انتفاضة الأقصى

بين الإعلام الإسرائيلي، والإعلام العربي

لا يشك أحد في أن الإعلام هوأحد أهم ساحات المعارك لأن جوهر هذه الساحة هو الكلمة والصورة والقدرة على استخدامهما في السيطرة على عقلية المشاهد أوالقارئ. كما لا يخفى أن الإعلام الإسرائيلي قد نجح حتى الآن في تقديم المنطق الإسرائيلي إلى الآخر وحتى إلى الآخر العربي بشكل جعل المنطق الفلسطيني عاجزا عن منافسة الإسرائيلي في هذا الباب. ومن السذاجة وتبسيط الأمور أن نركن إلى التفسير النفسي الذي يذهب إلى أن الأقوى أكثر إقناعا وأعلى صوتا بينما الأضعف – خاصة في هذا العصر الذي لا يرحم الضعفاء – لا يجد حتى من يريد الاستماع إليه إلا من ذوي القلوب الرحيمة وقليل ما هم .

والغريب أن الإعلام العربي وهو مؤيد قطعا للانتفاضة، لم يتوحد خبراؤه والمشاركون فيه لتقديم إعلام عربي متماسك، مستفيدين من احتكار العالم العربي بفضائياته لجزء هائل من لإمكانيات الفضائية، كا لم يعن هؤلاء الخبراء بتحليل شكل ومضمون الإعلام الإسرائيلي الموجه إلى العالم الخارجي، بل إني أزعم أن بعض وسائل إعلامنا تردد الرسالة الإعلامية الإسرائيلية دون أن تعقب عليها، ويكفينا أننا مشغولون بقضايا لا تسمن ولا تغني من جوع، بينما إعلام إسرائيل يغزو العقول والقلوب والقرار السياسي من حولنا، ونكتفي نحن بنقد مواقف الدول الأخرى ورأيها العام الذي يتأثر بالإعلام الإسرائيلي ويؤثر بدوره في قرار حكومته إزاء ما يجرى في المنطقة .

صحيح أن إسرائيل تحظى بدرجة مضمونة من القبول المبدئي في الذهنية الغربية لاعتبارات ولأسباب كثيرة لا مجال هنا لتفصيلها، بعضها تاريخي، وبعضها الآخر مثالي، وبعضها الثالث يتصل بجزء من التحيز الغربي المعروف في الثقافة الغربية تجاه العرب والمسلمين، ولكن السبب الأهم والذي لا يجوز تجهيله أوتهميشه في تحليلنا هو إصرار إسرائيل وعزمها على خوض المعركة مع العرب في جميع الساحات، بحيث يظل معيار القبول هو نجاح أي من الجانبين

في أن يثبت للغير جدارته بالبقاء والتميز والتسيد. ويكفي أن نحيل في ذلك ـ دون حاجة إلى إفاضة – إلى مؤشرات التنمية البشرية والاقتصادية، وإلى القيم التي تسود المجتمع الإسرائيلي وتدفع بالكفاءة إلى المقدمة، بينما تطمس الكفاءات في العالم العربي ؛ حتى لا يبقى تحت الأضواء غير العملة الرديئة في معارك قصيرة النظر، غاية همها بقاء الأضعف في موقعه والفتك بالأصلح، وهي ظاهرة – في ظني – ستظل من أهم أسس الصراع على البقاء بين العرب وإسرائيل .

كيف إذن يستمع العالم إلى شارون وهو يؤكد في الإعلام الروسي والصحافة الألمانية مثلا أن ياسر عرفات هو رأس الإرهاب، وأن السلطة الفلسطينية هي " عش الدبابير "، وأن إقامتها كان من أخطاء إسرائيل، بل إن شارون نفسه آسف أنه سمح عام ١٩٨٢ م للقيادات الفلسطينية الحالية التي كانت محاصرة في بيروت بأن ترحل مقابل انسحاب إسرائيل من بيروت. ولا يمانع الأوربيون أن يوجه إليهم شاورن لوما جارحا لأنهم يقدمون العون الاقتصادي للسلطة الفلسطينية التي تشتري به سلاحا لتهدد به أمن إسرائيل الوادعة الساعية دوما إلى السلام! ! !.

وكيف تجاهل الإعلام العربي تحليل تصريحات هتلر الجديد، وكذلك التصدي للإعلام الروسي الذي يعتبر قطاع كبير منه أن الانتفاضة هي مثل أعمال الشيشانيين، وكلها عندهم إرهاب إسلامي يبرر التعاون على أعلى مستوى بين إسرائيل وروسيا، كما تبين للرئيس بوتين أن يردد في حضور زوار عرب كبار منهم الرئيس عرفات بأنه لا يؤيد العمليات الإرهابية ضد إسرائيل، كما لا يسعد " بالعنف " الإسرائيلي ضد الفلسطينيين .

ولماذا لم يحتفل الإعلام العربي بتصريحات شارون في مجلة "شترن" الألمانية يوم ٢٠٠١/٦/٨ م التي أكد فيها أن إسرائيل تناشد الأوربيين أن يكونوا منصفين وموضوعيين وأن يروا الحق وهو في جانب إسرائيل ويثبتوا الطابع الإرهابي لعرفات. ويعلم العاملون بهذا الإعلام أن مثل هذه الرسائل الإعلامية تكشف عن نية مبيتة لإعداد الأرضية اللازمة لأي عمل ضد عرفات والسلطة الفلسطينية فيما أسمته إسرائيل " الرد الكبير " إذا فشلت جهود مدير

المخابرات المركزية الأمريكية في تحقيق ما تريده إسرائيل ثمنا للامتناع عن هذا الرد الكبير، وأنها لن ترضى بأقل من تسليمها رؤوس " الفتنة " ومعكري صفو"السلام الفلسطيني الإسرائيلي" من صفوف المقاومة الإسلامية ومساعدة عرفات على ذلك؛ حتى نظل في نظر إسرائيل في صفوف الشرفاء العاملين على قمع أصوات المتضررين من فتك إسرائيل وإسكات أنين المجروحين وآهات المكلومين وصيحات " الإرهابيين الانتحاريين " الذين يجلبون على أهليهم وشعبهم نقمة إسرائيل وردها الكبير .

ولماذا لم يشرح الإعلام العربي حقيقة الموقف وتحليله، وهو أن عرفات والسلطة قد أعلنوا وقف إطلاق النار من جانب القوات الرسمية الفلسطينية العاملة تحت إمرة عرفات، وهي قوات هزيلة التسليح وتعمل في مجال الأمن الداخلي ولم تشترك يوما في إطلاق النار وهي إن فعلت فذلك رد على هجوم إسرائيلي مسلح ضد شعبها الأعزل وبمناسبة الهجوم وأثناء وقوعه، وليس حتى بعد انتهائه على سبيل الانتقام. فالمطالب بوقف إطلاق النار هو المعتدي الإسرائيلي، وليس المدافع الفلسطيني عن حياته ووطنه الغصيب .

وأما دفاع الأهالي ضد "المستوطنات" الصهيونية وهي جزء من مؤسسات الاحتلال الإسرائيلي وعبثهم بحياة الأهالي وقراهم الآمنة، فلا ينطبق عليه قرار عرفات. كذلك لا يسري قرار عرفات على قيام الأهالي بالتصدي للجرافات والدبابات الإسرائيلية التي تقوم بهدم المنازل وتجريف المزارع. ومن ناحية ثالثة لا يسري القرار قطعا على مظاهرات الاحتجاج على تصرفات سلطات الاحتلال، أوقذف الصبية داخل أراضيهم جنود الاحتلال بالحصى، والتي تحولت عند الصهاينة إلى حجارة من سجيل .

ولا شك أن أعمال الاحتجاج الفلسطيني على استمرار الاحتلال وتصرفات المحتل وسياسات التضييق والإبادة الاقتصادية وتقطيع أوصال المناطق الفلسطينية وعزلها هي جوهر ما نسميه"الانتفاضة" وقد تتسع ليدخل فيها الرد بأي طرق على همجية سكان المستعمرات الصهيونية. ولا ينطبق القرار قطعا من ناحية رابعة على قيام الشباب الفلسطيني بالتصدي لهمجية سكان المستعمرات الصهيونية. ولا ينطبق القرار قطعا من ناحية رابعة على قيام الشباب

الفلسطيني بمهاجمة التجمعات الصهيونية داخل حدود فلسطين المغتصبة المعروفة بإسرائيل، وهذا هوأخطر حلقات الجهاد على إسرائيل .

وربما كان هذا بالضبط ما أرادت إسرائيل من عرفات أن يوقفه وذلك بأساليب حددتها إسرائيل: أولا : توقف عرفات ورفاقه عن مهاجمة تصرفات إسرائيل باعتبار أن هذا الهجوم يشحن الشاب ويحضهم على مهاجمة السكان الإسرائيليين ويشيع الكراهية والحقد ضدهم، وأنه يجب على عرفات أن يهلل لكل هجوم عسكري إسرائيلي ضد شعبه وأن يقمع زفرات الأسى في قلوب أهالي ضحايا الإبادة الإسرائيلية وأن يحث شعبه على التحلي بالأدب في مواجهة الوقاحة الصهيونية، كل ذلك حتى لا يتهم بالتحريض، وحتى يحظى برضا إسرائيل واعتماده مفاوضا وممثلا حقيقيا للشعب الفلسطيني، ومطلوب من عرفات ثانيا أن يبعث عيونه في القرى والنجوع لكي يجهض أي عملية استشهادية في مهدها، فإن أفلت منه المخططون فليحث الشباب المكلف بالتنفيذ قبل أن يتسرب من الأراضي الفلسطينية صوب هدفه في إسرائيل، وإن عجز ـ لا قدر الله ـ خلال ذلك كله ونجحت العملية الفدائية في حصد أرواح القتلة والسفاحين ومساندي شارون، فلا عليه إلا أن يدين بشدة هذا العمل " الأخرق " وأن يبعث بتعازيه إلى أهالي " الضحايا الأبرياء " الذين اختاروا شارون ليجلب الأمن إلى صدورهم ووقف تحدي الشعب الفلسطيني ومقاومته لأعمال إبادته وذبحه، فإذا بالفزع ينتاب كل صهيوني بدرجة لم يسبق لها مثيل منذ زرعوا في المنطقة عام ١٩٤٨ م. وقد يقوم عرفات بأريحيته المعهودة بواجب العزاء بنفسه لأسر الضحايا أويطلق أسماء بعض " شهدائهم " على شوارع غزة والضفة .

وأخيرا لماذا لم يسم الإعلام العربي الأشياء بأسمائها الحقيقية مثلما تفعل إسرائيل ؟، فمن زاوية إسرائيل يعد كل عمل فلسطيني ابتداء من رمي جنودها بالحجارة، وتصدي السكان العزل للدبابات الإسرائيلية القادمة لتجريف منازلهم، والتصدي لعدوان وبربرية المستعمرين الصهاينة المقيمين فوق الأراضي الفلسطينية وانتهاء باستشهاد الشباب انتقاما لوطنهم وأهليهم ضد غطرسة الصهاينة وفي عقر دارهم، كل هذه أفعال إرهاب، وهو مصطلح ردده تقرير ميتشل، وتردد في قرارات مجلس الأمن، وفي بيانات رؤساء الدول وتصريحاتهم وأمين عام الأمم المتحدة. ومقابل

ذلك فإن أفعال إسرائيل ـ وكلها تشكل جرائم إبادة ضد الشعب الفلسطيني ـ تقدمها إسرائيل على أنها رد انتقامي على العدوان الفلسطيني وأعمال الإرهاب التي يمارسها الشعب الفلسطيني وقيادته ضد إسرائيل، يحرك هذه الأعمال الإسرائيلية دوافع نبيلة وهي توفير الأمن للمواطن الإسرائيلي سواء كان هذا المواطن في منزله في إسرائيل أوكان جنديا في جيش الاحتلال وأعماله .

ولكن لغة الدبلوماسية العالمية والإعلام العالمي تصم أعمال إسرائيل بما لا يرضي إسرائيل ويغضبها بسبب عدم موضوعية هذه اللغة. فتصف هذه اللغة تصرفات إسرائيل بأنها تارة "استخدام مبالغ فيه للقوة "، وتارة أخرى تصف هذه الأعمال بأنها "أعمال عنف"، بينما تصف اللغة المحايدة جدا كلا من الأعمال الفلسطينية والإسرائيلية بأنه تصعيد متبادل للعنف .

والطريف أن الإعلام العربي والحكومات العربية الملتزمة بآداب الخطاب السياسي العالمي تحرص على استخدام مصطلح العنف، وأن سعيها يتجه إلى وقف هذا " العنف " من الجانبين. ولعله من الواضح مدى الظلم أن يستخدم حتى الجانب العربي هذا المصطلح المضلل، لا شيء إلا لأن سادة الصياغة السياسية والإعلامية قد قدموه لنا مثل عشرات المصطلحات الأخرى التي ألقيت لنا وتلقيناها بغير وعي ورددناها بغير تبصر .

والأحرى أن نسمي تصرفات إسرائيل كلها إبادة ومذابح وعدوانا على شعب مسالم أعزل لا يبغي سوى حقوقه المشروعة داخل الجزء المتبقي من أرضه بعد وليمة اغتصابها، وأن نسمي جهاد الفلسطينيين كله بدءا بالحجر وانتهاء بالعمليات البطولية الفدائية ضد شعب إسرائيل دفاعا شرعيا عن البقاء ضد خطط الإبادة، وألا نميز في إعلامنا بين هدف مدني وهدف عسكري ما دام الجيش الإسرائيلي يعصف بالجميع والغارات الإسرائيلية والصلف الإسرائيلي لا حدود لهما بل إن تصرفات جنود الاحتلال تخلو من أي إنسانية، ولم لا ؟!، وأن شارون يجاهر بأن الحل الأمثل لأمن إسرائيل هو ترحيل الفلسطينيين أوإبادتهم. فلماذا نتحلى بالإنسانية التي يحتقرها شارون ويراها أبرز الأدلة على التوائنا وعجزنا ؟! .

٥ـ شارون، ميلوسوفيتش، بينوشيه . .

الأشباه والنظائر

لا يشك أحد مِنَ المراقبين في أنَّ القرن الحادي والعشرين هُوعصر الشعوب، وأنَّ الفظائع الَّتي ارتكبت ضِدَّ الإنسان خاصة خلال النصف الثاني مِنَ القرن العشرين أثبتت أنَّ العهد الَّذي قطعته "شعوب" الأمم المتحدة عَلَى نَفْسَهَا فِي ديباجة الميثاق بتجنيب الأجيال القادمة ويلات الحروب، لَمْ يتحقق، بَلْ ازدادت المأساة تعقيدًا. وإذَا كَانَت الشعوب لَمْ تظهر بشكل ساطع فِي عمليات التغيير وَالتصدي للقمع خلال القرن العشرين إلاَّ بصورة منعزلة ومتقطعة، وبشكل خاص عِنْدَمَا أعادت رومانيا سيناريو الثورة الفرنسية ضِدَّ دكتاتورها تشادسيسكو عام ١٩٨٩ م وضِدَّ الشاة قبله عام ١٩٧٩ م، فَإنَّ اطّراد حالات التحول الكبرى عَلَى يد الشعوب تصنع ظاهرة فِي القرن الحادي وَالعشرين عَلَى النحو الَّذي شاهدناه فِي بقاع متعددة أبرزها يوغوسلافيا والفلبين وَأندونسيا ضِدَّ سوهارتو وحبيبي، ثم بعدها ضِدَّ وحيد، وفِي تايلاند وكوريا الجنوبية وغيرها عَلَى الطريق. ولَكِن اللافت للنظر أنَّهُ فِي حالة يوغوسلافيا ارتبطت الحركة الشعبية الَّتي قهرت ميلوسوفيتش عَلَى قبول نتائج الانتخابات والتسليم بفشله باتجاه آخر، وهُوالتأكيد عَلَى أنَّ هَذَا الفشل فِي كسب ثقة الناخب سبب عجزه عَنْ رؤية المصلحة الوطنية الحقيقية للبلاد وعدم جدارته بالتَّالِي بهَذِهِ الثقة، وهُو مَا مهد الطريق إلَى المطالبة بمحاكمته داخليًّا أو دوليًّا بتهم أساسها وطني وبعضها يتعلق بالخط الوحشي فِي سياساته إزاء البوسنة وكوسوفو.

تلك إذن حقيقة لابد من لفت النظر إليها، فالقرن الجديد هو قرن الشعوب ووعيها بحقوقها وتدخلها عند اللزوم لاقتضائه ولو بالقوة، وهوقرن العدالة الدولية مهما كان قدر القفز على هذه العدالة أحيانا لاعتبارات سياسية محددة. ولا شك أن كلا من شارون وميلوسوفيتش وبينوشيه قد دخلوا التاريخ الوطني والعالمي بصور متفاوتة، واجتمع الثلاثة عند علامات الشبه والوفاق، كما اقترن الثلاثة في جوانب أخرى تثير فضول القارئ وتدفع إلى التقصي، ولكن هذا التقصي سوف يضع القارئ حتما أمام سؤال أكثر إلحاحا وهو: هل يمكن أن يلقى شارون مصير بينوشيه كحد أدنى ؟، أم مصير ميلوسوفيتش كحد أقصى؟، وما قيمة أن تجرم أعمال شارون ذي

الشعبية الواسعة مِنْ منظور التراكم السياسي والثقافي بسبب إدانته المتكررة عَلَى تقبل المجتمع الدَوْلي بحق المساواة فِي الطبيعة بَيْنَ الصهيونية والجريمة العنصرية، بحَيْثُ يتسنى تجريم الصهيونية هِيَ الأخرى ؟ يشترك أقطاب الإجرام الدَوْلي الثلاثة فِي أنَّ رصيدهم ومشروعهم الإجرامي جعل كُلاً مِنْهُم بحق علمًا ظاهرًا عَلَى المستوى الوطني والدولي، كَمَا يشترك الثلاثة فِي أنَّ جرائمهم تخطت المستوى الوطني إلَى المستوى العالمي، ولَكِن شارون يتميز عليهم جميعًا ويتقدمهم بلا جدال. فَإذَا كَانَ بينوشيه قَد جاء إلَى الحكم فِي شيلي بانقلاب عسكري ضِدَّ الرئيس أليندي الماركسي المنتخب عام ١٩٧٣ م، فَإنَّ الجنرال شارون قَد تسلم الحكم مطلوبًا بشدة مِنْ شعب إسرائيل بتفويض كاسح مِنَ الناخبين بشرعية ودستورية واضحة فِي إطار نظام ديمقراطي متطور، وبمباركة فِي الحالين مِنَ الولايات المتحدة لاعتبارات متفاوتة .

مِنْ ناحية أخرى ارتكب بينوشيه جرائمه ضِدَّ شعب شيلي وضِدَّ أجانب مِمَّا أحنق عَلَيْهِ شعبه الَّذي نظر إلَيْهِ بوصفه مغتصبًا للسلطة وعميلاً لواشنطن. أمَّا ميلوسوفيتش فَقَد ارتكب جرائمه ضِدَّ البوسنيين والكروات والكوسوفيين دفاعًا عَنِ الصرب، واعتبر لِذَلِكَ بطلاً قوميًّا بعض الوقت، ولَكِن فظائعه لَمْ يحتملها أي ضمير حي فانفض الناخب مِنْ حوله طلبًا للنجاة مِنْ هَذَا الكابوس الَّذي تسبب فِي عمليات حلف الأطلنطي ضدها عام ١٩٩٩ م. وعَلَى نحوِمَا فعل بينوشيه، فَإنَّ ميلوسوفيتش ارتكب جرائمه ضِدَّ شعبه أيْضًا وتجاوز فِي ممارساته البربرية كُلَّ حدود لعلاقة الحاكم بالمحكوم مَهْمَا اشتد حرص الحاكم عَلَى المحافظة عَلَى تماسك الدَوْلَة وسلامتها الإقليمة ضِدَّ النزاعات العرقية والانفصالية. فَقَد مضى ذَلِك الزمن الَّذي كَانَ فِيهِ الحاكم يعتبر أنَّ علاقته بشعبه شأن داخلي لا يجوز التدخل فِيهِ، وأنَّ ذَلِك مِنْ صور حَقّ الدولة – مُعَبِّرًا عَنْهَا برئيسها وَحكومتها ولَيْسَ شعبها – بتحقيق المصير دُونَ أنْ يؤدي الإقرار بِذَلِك إلَى أنْ يَكُون البديل هُو التدخل الإنساني الدَوْلي .يشترك ميلوسوفيتس مَعَ بينوشيه أيْضًا فِي أنَّهُمَا خارج السلطة وأنَّ التهم الْمُوَجَّهَة إليهما تتعلق بإبادة الجنس وجرائم الحرب وانتهاك حقوق الإنسان، ولَكِن موقف واشنطن مِنْ كليهما ومِنْ محاكمته مختلف، وأساس هَذَا الموقف الْمُعْلَن والمستتر مختلف هُو الآخر. فَقَد سعت واشنطن إلَى إسقاط ميلوسوفيتش رُبَّمَا بوصفه زعيمًا

شيوعيًّا سابقًا، ورُبَّمَا لعجز أُورُبَّا عَنْ إدارة أزمة أُورُبِّيَّة بالأساس، ثُمَّ سعت إلَى استبداله، ثُمَّ تسليمه للمحكمة الجنائية الدَوْلية الخاصة لمحاكمته، أمَّا بينوشيه، رجل واشنطن، فلم تسعد واشنطن بتعقبه قضائيًّا فِي لندن ؛ حَتَّى لا تؤدي محاكمته إلَى محاكمة السياسة الأمريكية ورموزها حِينَذَاكَ .

مِنْ ناحية أخرى، فَإِنَّ لشارون وضعًا خاصًا متميزًا **مِنْ عدة وجوه** :

الوجه الأول : أنَّ شارون قَد حصل عَلَى تفويض مِنْ شعبه لارتكاب جرائمه ضِدَّ الشعب الفلسطيني مُنْذُ انتفاضة الأقصى فِي سبتمبر ٢٠٠٠ م، وعَلَى مباركة مِنْ واشنطن عَلَى ذَلِك. بيد أنَّ هَذِهِ الجرائم تضع شارون فِي موضع المخلص والساعي إلَى جلب الأمن للمواطن والمكانة للدولة بصرف النظر عَنِ الطابع الإجرامي لمشروعه وأفعاله .

الوجه الثاني : أنَّ شارون يرتكب جرائمه، لَيْسَ ضِدَّ شعبه كَمَا فعل بينوشيه وميلوسوفيتش، وإنَّمَا ضِدَّ شعب آخر، هُوصاحب الحق فِي كُلِّ الأرض الْمُغْتَصَبَة والْمُسْتَهْدَف مِنْ جانب شارون فِي بقائه وحقوقه، وهُو مَا يجعل شارون فِي وضع أسوأ مِنْ قرينيه .

الوجه الثالث : إذَا كَانَ لشارون سجل حافل فِي إبادة الشعوب العربية المجاورة فِيمَا كشفت عَنْهُ جرائم قتل الأسرى المصريين، وضحايا قانا وصبرا وشاتيلا، وضحايا انتفاضة الأقصى وَغيرهم، فَإِنَّ شارون أحد أبطال سلسلة القادة الصهاينة الَّذِينَ صنعوا أمجادهم مِنَ المآسي والجرائم ضِدَّ الشعوب العربية، بَيْنَمَا جرائم قرينيه شخصية ولا تخص سواهما فِي تاريخ بلديهما.

الوجه الرابع : أنَّ مطاردة شارون بدأت وهُو لا يزال فِي السلطة، مِمَّا يؤدي بمَا هُو أسوأ بَعْدَ تركه لَهَا، بَيْنَمَا بينوشيه كَانَ قَد رتب حَتَّى لا تُثار جرائمه فِي بلده مقابل ترك السلطة، وأنَّ هَذِهِ الجرائم قَد أثيرت لأول مرة خلال زيارة بينوشيه عضو مجلس الشيوخ لبريطانيا عام ١٩٩٨م.

وَكَذَلِكَ الحال بالنسبة لميلوسوفيتش الَّذي سانده الصرب فِي جرائمه، ولَمْ يَكُن متوقعًا أنْ

تتحول صورة البطل عندهم إلَى مجرم تلاحقه دواعي بطولته لَولا تحريك الموقف مِنَ الخارج كَمَا رأينا .

ويقف شارون الآن فِي وضع متميز، فلا شَكَّ أنَّ بطولته فِي نظر شعبه ستظل لصيقة بشخصه، سواء بقي فِي السلطة أوتركها، وأنَّ أي مساس بشارون سَوْفَ يستثير كُلَّ أسلحة الصهيونية العالمية بدءًا بمعادة السامية، ولِذَلِكَ لا يُتَوَقَّع أنْ يحاكم فِي إسرائيل عَنْ جرائمه، وَلَكِن الْمُتَوَقَّع أنْ يضيق الخناق حوله وتكثر أوامر القبض والتوقيف ضده، مِمَّا يشكل ضغطًا هائلاً عَلَيْهِ وعَلَى حكومته ودرسًا لِكُلِّ الَّذِينَ يستهدفون كرامة الإنسان تحت إغراء القوة الباطشة، وقَد يأتي اليوم الَّذي يفيق فِي شعب إسرائيل فيطهر نفسه بتسليم شارون وأقرانه للمحاكمة الدَوْلية ؛ حَتَّى تصبح هَذِهِ المحاكمة حَقًّا أداة لفرض هيبة القانون والمجتمع الدولي، وَلَيْسَ سلاحًا سياسيًّا تحركه دوافع وطنية مشبوهة.

٦ـ حدود المقاومة

وآفاق التسوية في فلسطين

لا بُدَّ مِنَ الاعتراف بأَنَّ للمقاومة حدودًا وطاقة، كَمَا أنَ للتسوية دَائِمًا فرصًا وآفاقًا، مَهْمَا ضاقت حدود المقاومة واتسعت طاقتها، أوضاعت آفاق التسوية السياسية. فالحروب دَائِمًا تنتهي باتفاقات تعكس عادة ثقل القوة العسكرية للمتحاربين، ولا يملك المفاوضون أكثر مِمَّا لديهم مِنْ أوراق تترجم هَذِهِ القوة. وتطبيق نفس القواعد عَلَى الصراع الفلسطيني فِي الوقت الراهن هُو مَا تسعى إِلَيْهِ إسرائيل، وفِيهِ الكثير مِنَ الظلم للفلسطينيين، فَنَحْنُ نذكر أَنَّ اندلاع الانتفاضة الثانية فِي سبتمبر ٢٠٠٠ م كَانَ إيذانًا بضيق الشعب الفلسطيني بتلكؤ الاحتلال واستمراره وعرقلة جهود التسوية الَّتي كادت أنْ تحقق جزءًا مِنْ آمال الشعب وهُو: زوال الاحتلال عَلَى الأقل .

ولا أظن أَنَّ الانتفاضة كَانَت تفترض أَنَّهَا سَوْفَ تستمر وتتسع حَتَّى تصل إِلَى مرحلة الثورة الشاملة فِي مواجهة حرب شاملة إسرائيلية تستخدم فِيهَا كُلَّ أنواع الأسلحة، ويحارب فِيهَا الجيش الرسمي، كَمَا يحارب جيوشًا مقابلة. فَقَد وصلت الانتفاضة عبر مراحل مختلفة إِلَى نقطة اللا عودة مُنْذُ أنْ قَرَّرَ شارون إزالة الفواصل بَيْنَ الخطوط المباحة والمحظورة، ولَمْ يَعُد أمامه مقدسات أومحظورات، وأطلق يده فِي تمشيط الشعب والأرض وفق برنامج محدد لحرمان الشعب الفلسطيني مِنْ أبرز نشطائه وقياداته الَّتي تستجيب عمليًّا لروح القتال والتحدي .

وكَانَ يكفي فِي مرحلة مبكرة أنْ تُتَرْجَم أعمال الانتفاضة بوصفها رفضًا للاحتلال واحتجاجًا عَلَى عجز الساسة عَن التسوية المنصفة، وأنْ تُستأنف المفاوضات لتحسين الموقف الفلسطيني، وَاعتقد زعماء إسرائيل فعلاً أَنَّ الانتفاضة أداة فِي أيدي الساسة فضغطوا عَلَى عرفات لوقفها دُونَ مقابل، ثُمَّ أصْبَحَ ضغطه عَلَيْهَا أوتعاونه مَعَ إسرائيل لتصفية رموزها أوالتحالف مَعَهُ ضِدَّ مَا أسمته إسرائيل "بروز القوة الإسلامية فِي صفوف الحركة الوطنية" ثمنًا لاعتباره شريكًا سياسيًّا، فحينما لَمْ يستجب بالقدر الكافي تحددت إقامته، ثُمَّ حملته إسرائيل فِي كُلِّ مرة مسئولية

الأعمال البطولية الَّتي يقوم بهَا الشباب الفلسطيني فِي عمليات جسورة ضِدَّ إسرائيل. فَلَمْ يملك عرفات فِي نهاية المطاف إلاَّ أنْ يتوحد مَعَ شعبه حين رَأى الموت لا يفرق بَيْنَ صغير وكبير، بَلْ يستهدف الجميع قتلاً وَإذلالاً وقهرًا .

وَإذَا كَانَ الشعب الفلسطيني قَد دفع الكثير مِنْ أبنائه ودوره وعانى مَا لَمْ يعانه شعب عبر التاريخ، وقَد انحصر فِي مواجهة عدو يصفي مَعَهُ حسابات العمر وسط سكوت العالم كله ومتابعته لقوافل الشهداء ومآتم بالجملة، واحتقار إسرائيل للموتى والجرحى والأحياء، فَإنَّ ذَلِك، لا شَكَّ خلق معضلة تتصل بنظر الشعب الفلسطيني إلَى العامل العربي فِي صراعه مَعَ إسرائيل، كَمَا خلق معضلة للقمة العربية فِي النظر إلَى معطيات الموقف، وهِيَ نفس المعطيات كَمَا يراها الشعب الفلسطيني : إسرائيل المتوحشة تفتك بالجميع وتستخدم الأسلحة الأمريكية وتقوم بأعمال الإبادة المنظمة، يقابل ذَلِك صمود فلسطين رغم الدمار الشامل، وعمليات بطولية فِي العمق الإسرائيلي، ثُمَّ صمت عربي كامل، فَمَاذَا يُمْكِن للقمة أنْ تنظر إلَى هَذِهِ المعطيات ؟، ومَاذَا يريد الفلسطينيون مِنَ القمة ؟ .

أمَّا مَاذَا يريد الفلسطينييون حَقًّا مِنَ القمة، فَهُو واضح، يريدون مساندة مادية وعسكرية وَدبلوماسية وإعلامية لثورتهم، وحملة عربية واسعة فِي كُلِّ المحافل ضِدَّ إسرائيل، ووقفة عربية جادة مَعَ الولايات المتحدة .

أمَّا القمة العربية فيرجى أنْ تلتقي مَعَ المطالب الفلسطينية عَلَى أساس أنَّ القضية تخصهم، وَأنَّ الفلسطينيين أنفسهم هم وقود الثورة وأنَّهُم عازمون رغم كُلِّ شيء عَلَى المضي حَتَّى النهاية، وأنَّ الصراع العربي الإسرائيلي كَانَ دَائِمًا صراعًا بَيْنَ جيش إسرائيل وجيوش نظامية عربية، شهد بصفة دائمة انتكاسات عربية متتالية باستثناء حرب أكتوبر، وقَد آن الأوان أنْ يخرج الشعب الفلسطيني عَنِ العباءة العربية الفضفاضة الَّتي ساندته أحيانًا وخذلت نضاله فِي معظم الأحيان. وَوفق هَذَا المنطق فَإنَّ المساندة العربية للفلسطينيين تخدم الأمن القومي العربي، وتلبي احتياجات الصمود الفلسطيني، وتمثل رَدًّا عَلَى تعنت إسرائيل. فَهَل يريد الفلسطينيون ذَلِك حَقًّا لتستمر انتفاضتهم ؟، أمْ أن كثافة خسائرهم واستحالة هزيمة الجيش الإسرائيلي فِي ظل

إصراره عَلَى الإبادة تدفع الزعماء العرب إلَى تجاوز هَذَا الموقف إلَى تسوية أرحب ؟، وكَيْفَ يُمْكِن تجاوز معادلة شارون والقضية إلَى معادلة تأخذ فِي حسبانها الصمود الفلسطيني وقوافل الشهداء وَالخسائر الفادحة والإبادة الشاملة. فبدء التفاوض مِنْ نقطة الحاضر سيكون لصالح إسرائيل، كَمَا أنَّ رفض التفاوض يعني الاستمرار فِي الإبادة .

ولكن القمة تستطيع أن تستشرف آفاق التسوية وفرصها، في الوقت الذي تساند فيه الانتفاضة، وتقف بحزم مع الولايات المتحدة. فلا شك أن خسائر الفلسطينيين البشرية والمادية والسلوك البربري الإسرائيلي يجعل التفاوض من أجل السلام أمرا مشكوكا في جدواه في الوقت الحاضر. فهل يراهن العرب على دعم الانتفاضة وترك الأمر للقرار الفلسطيني ومساندته لعل ذلك يحدث التغيير المطلوب في إسرائيل ؟ .

لا شك أيضا أن استمرار الانتفاضة يعمق القيم الجديدة بالغة الأثر التي تؤثر على المدى الطويل على إسرائيل، وأهمها زرع عقيدة خطيرة لدى المواطن الإسرائيلي بأن الفلسطيني هو صاحب الأرض وأن الإسرائيلي مغتصب هذه الأرض، وأن الفلسطيني مستعد للموت دفاعا عن أرضه وكرامته. ولذلك فإن تسليح الفلسطينيين بالإضافة إلى جسارتهم تبشر بعصر بالغ الحرج للإسرائيليين، كما أنها سوف تقلب موازين الهجرة إلى إسرائيل ومنها مما يهدد جذور المشروع الصهيوني. وقد يدفع ذلك إسرائيل إلى الاعتقاد بأن القوة وحدها، وتصفية الشعارات المتبادلة، وما خلفته سنوات الغطرسة الإسرائيلية الطويلة، لا تحل مشكلة بقائهم واستمرارهم في المنطقة.

وسوف تكشف مرحلة ما بعد الانتفاضة عن عدد من القضايا الهامة، منها مدى شعور الفلسطينيين بهويتهم واعتمادهم على أنفسهم وتضاؤل شعورهم القومي بسبب الخذلان العربي العام لهم. من هذه القضايا أيضا معارضة الفلسطينيين تزايد الوصاية السياسية العربية في تقرير مصير حياتهم في الوقت الذي تنحسر فيه المساندة العربية الفعلية لهم .

ولا شك أن هذه النتيجة تناقض الخط التقليدي الذي كان يتسم بتعلق الفلسطينيين بوطنيتهم واكتشافهم لذاتهم، وقد تحقق اضطراريا بسبب وحشية إسرائيل والتخلي العربي، وذلك دون

العداء للخط القومي، فإن ذلك يختلف تماما عن رد فعل الكويتيين، كما نعلم، عندما أدركوا أن الضمان العربي عجز عن أن يحميهم من العراق، ولكنهم يشعرون بعدم الثقة والمرارة من الضمان العربي والخط القومي، ربما لأن العراق غزا الكويت بشعارات قومية .

والخلاصة، أن العالم العربي لا يجوز أن يشعر بالتمزق إزاء المقاومة الفلسطينية ومستقبل التسوية. فقد ظهر جليا نوع السلام الذي تريده إسرائيل، وأهمية مساندة المقاومة الفلسطينية، لكنه لا بد أن يدرك أن غياب الفعل العربي المتنوع ضد إسرائيل، وضرورة أخذها العامل العربي في الاعتبار سوف يخل بميزان القوة بين إسرائيل من جانب والعالم العربي كله من جانب آخر. ولا مفر من دبلوماسية عربية متماسكة وفاعلة تحمي النضال الفلسطيني، وتشكل ضغطا على التعنت الإسرائيلي، كما تعمق الخط الهائل الذي حظرته الانتفاضة على جيش المنطقة وقهرت الكابوس النفسي ووصلت إلى أعماق النفس الإسرائيلية، ودفعتها إما إلى الخوف والفرار من المنطقة، أوإلى الاعتدال وحسن السلوك.

٧ـ المقاومة الفلسطينية ومخاطر الفتنة الكبرى

أصبح الموقف في فلسطين بالغ التقصير، واختلطت فيه الحقائق بالأساطير، والحق بالباطل، مثلما أصبح بالغ الخطورة بسبب تطور الأحداث فيه، خاصة بين الفلسطينيين أنفسهم والفتنة التي تطل برأسها بشكل حاد بين المقاومة والسلطة الفلسطينية، وهو رهان إسرائيلي واضح، وأصبح أكثر وضوحا منذ وصول شارون إلى الحكم .

أما الحقائق في الموقف المتدهور في فلسطين فهي كثيرة، **أولها** : أن الانتفاضة تعبير عن تصميم الشعب الفلسطيني على أن يموت مناضلا ما دام قرار موته وإبادته محققا. **والحقيقة الثانية**: أن الانتفاضة ليست إحدى آليات تحريك الموقف السياسي من خلال قرارات السلطة الوطنية، بل أقول إن هذه الانتفاضة هي البديل عما اعتبره البعض الوقوع في وهم التسوية السلمية وإفلاس هذا الرهان، ومحاولة إصلاح عيوب هذا النهج الذي رفضته المقاومة الفلسطينية منذ البداية، وعانت بسببه إجراءات التزمت السلطة في مواجهة إسرائيل باتخاذها كأحد استحقاقات هذه التسوية على الجانب الفلسطيني؛ مما أنهك المقاومة، وهدد عدة مرات بوقوع الفتنة التي تطل من جديد بين السلطة والمقاومة. ويترتب على حقيقة : أن الانتفاضة مستقلة عن السلطة أن الأخيرة تذبذب موقفها من الانتفاضة، فهي على العموم لا تعارضها، لكن السلطة وهي في موقف حرج بينها وبين إسرائيل تحاول تحجيمها والسيطرة عليها، وفي أحيان أخرى تتمسك بها، بل وتنضم إليها. وهذا الموقف راجع إلى عدد من الأوهام التي اختلطت بحقائق الموقف في فلسطين.

أما أول هذه الأوهام وأخطرها فهو الاعتقاد بأن إسرائيل يمكن أن ترد الحقوق إلى أصحابها، وأن طريقها إلى ذلك هو: التسوية السياسية. صحيح أن هذا الاعتقاد هو الذي ساور منظمة التحرير ودفعها إلى استثمار ما تبقى لها بعد تبديد رصيدها في أعقاب أزمة الخليج وانسداد طريق واشنطن، واضطرارها (كما تقول) إلى تسوية أوسلو لكي تضع العامل الفلسطيني على خريطة جهود التسوية السياسية بعد نبذه بحجة الإرهاب، واستبعاده من خريطة الجهاد العسكري المسلح منذ عام ١٩٨٢م.

ولكن المنظمة راهنت على حد أدنى من الجدية الإسرائيلية والأمريكية يقابله جهد فلسطيني لضبط حركات الشارع الفلسطيني، وترجمة انتفاضة السنوات الست من ١٩٨٧ م إلى ١٩٩٣ م إلى أوسلو، على أساس أن الانتفاضة وسيلة لتحسين الموقف على مائدة المفاوضات، وأن هذه الإنتفاضة بذاتها لن تحرر فلسطين، وأن واجب القيادات السياسية هوترجمة هذه الإنتفاضة إلى كروت سياسية. فكانت أولى مآزق السلطة الوطنية أنها دفعت قدرات المنظمات الفلسطينية عربونا للسلام مع إسرائيل، وآملا في القبول لدى واشنطن بصفتها طرفا مؤثرا وبمصداقية معقولة في علمية السلام، وأنها تمثل فعلا الشعب الفلسطيني، وتعبر عن إرادته وتتعاقد مع إسرائيل باسمه .

وعلى الجانب الآخر : **فإن الوهم الثاني** الذي وقعت فيه السلطة قد عزز مأزقها وعقد موقفها، ويتحصل هذا الوهم في أن إسرائيل ليست عازمة حقا على إبادة الفلسطينيين، وأن وجود السلطة على جزء من الأراضي المحررة خير من نفيها خارج الوطن تماما بعد أن انسدت كل فرص النضال العسكري انطلاقا من أراض عربية مجاورة لإسرائيل .

الوهم الثالث : أن حكومة شارون الائتلافية يمكن أن تستشعر فداحة التصلب فتضطر إلى تغيير موقفها، ولكن الحقيقة الساطعة هي : أن هذه الحكومة تدرك تماما أن قيمة حكومة عرفات الوحيدة هي : في قدرتها على وقف الانتفاضة، وأن عجزها عن ذلك يعني أن هذه الحكومة لا تصلح ندا في عملية السلام بعد أن عجزت عن وقف " الإرهاب " ضمن التزامات الجانب الفلسطيني في العملية. فأصبح عرفات في مأزق حقيقي ؛ فلا هوقادر — وربما غير راغب ـ في وقف الانتفاضة، ولا هو قادر على إقناع الإسرائيليين بأن استمرار الانتفاضة سببه تلك الإجراءات القاسية التي تهدف إلى اقتلاع هذا الشعب من أرضه ومن الحياة. والذي يدركه الجميع الآن أن برنامج شارون يتجه إلى تدمير السلطة والانتفاضة معا بكل الوسائل، أبرزها : استخدام القوة الغاشمة بكل الأسلحة .

ومن الأوهام أيضا أن إسرائيل تريد تعاونا مع الفلسطينيين على مرحلتين : الأولى مرحلة التعاون الأمني، ثم التعاون السياسي ؛ ذلك أن عبارات شارون قاطعة في أن السلام وعمليته

والحديث عنهما أمر مستبعد تماما، وأن المطلوب فقط هو وقف الانتفاضة بكل السبل في مواجهة هذا الموقف الإسرائيلي، والذي يحظى – لسوء الحظ – بتفهم دولي واسع ترجم أحيانا إلى صور من لوم الفلسطينيين، وفي أحيان أخرى إلى مساندة كاملة للإجراءات الإسرائيلية، فشلت كل جهود إثناء إسرائيل عن خطتها في إفناء الفلسطينيين، ويدخل في هذه الجهود المبادرة المصرية – الأردنية، والمناشدات المختلفة التي تلتمس التوازن اللفظي والحياد الأبله عندما تتحدث عن ضرورة وقف "العنف"، أولوم إسرائيل لإفراطها في استخدام القوة، ولم يقل أحد إن الذي يحدث هو فصل قاس من فصول تاريخ القرن الجديد، وهو قيام دولة غاشمة بمساندة الدولة العظمى الوحيدة ووسط صمت دولي تام وعجز عربي مخز بإبادة شعب بأكلمه واقتلاعه من أرضه، ولا يملك هذا الشعب سوى التمسك حتى الموت بهذه الأرض .

وإذا كانت الانتفاضة هي الإشارة الوحيدة على استمرار النبض في الجسم العربي، فماذا فعل هذا الجسم حتى يحظى بشرف التذرع والتمسح في الانتفاضة لكي تكون عنوانا لبقائه على قيد الحياة، والأصح أن هذه الانتفاضة هي إعلان عن أن الصراع لم يعد عربيا إسرائيليا، كما استخلصت في دراسة سابقة، وإنما صار مواجهة إسرائيلية ـ فلسطينية كما تريدها إسرائيل .

والانتفاضة بمعنى آخر : إعلان عن وجود الشعب الفلسطيني وجسارته في تحدى الاحتلال، مهما لقي من هوان وتجويع ومهانة، فقد ظلم هذا الشعب مرات، وأكبر صور الظلم: اتهامه بأنه لم يكن طرفا في المعادلة، فإذا به الطرف الوحيد فيها يقدم كل يوم شهداءه ويقض مضجع إسرائيل ببطولاته. ولقد عجبت من أن أحد كبار الكتاب العرب قد خصص مقالة بالأهرام ؛ لكي يؤكد أن العمليات الفدائية الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون ضد إسرائيل ليست محرمة شرعا، وأن الأصح أن تسمى العمليات الاستشهادية، بينما الوجود الفلسطيني والعربي نفسه معرض للإبادة والضياع .

فليست الخشية إذن من إبادة الشعب الفلسطيني وفق مخطط إسرائيلي مكشف، وإنما الخشية الحقيقية من الرهان الإسرائيلي الذي بدت بشائر تحققه، وهو شق الصف الفلسطيني، ودق الإسفين بين الانتفاضة والسلطة الفلسطينية. فقد اتجهت السلطة إلى مواجهة الانتفاضة،

وذلك بحل لجانها وإظهار قدر ملحوظ مِنَ اللين، بَلْ والمجاملة إزاء إسرائيل رغم استمرار الوحشية الإسرائيلية، والقبض عَلَى بعض زعماء حماس، وغَيْر ذَلِك، مِمَّا تحدته لجان الانتفاضة، وأعلنت استمرارها فِي طريق الكفاح ورفضها لمنهج التعلق بتسوية زائفة، وحَتَّى إسرائيل تَأْبَى أنْ تلوح بهَا وترفض الحديث عَنْهَا. وقيل فِي تفسير موقف السلطة إنَّ عرفات تَلَقَّى مَا يفيد أنَّ عجزه أورفضه وقف الانتفاضة سَيُؤَدِّي إلَى نفيه إلَى تونس، كَمَا كَانَ، ويُحْرَم مِنْ دخول البيت الأبيض، فِي الوقت الَّذي عزمت إسرا فِيهِ عَلَى قمع الانتفاضة بِأَيِّ ثمن، فخير لَهُ أنْ يَتِمَّ ذَلِك بيده " لا بيد عمرو" كَمَا يقول المثل، وقيل أيْضًا إنَّ مَا أعْلِنَ عَنْ علاقة بَيْنَ حزب الله والانتفاضة قَد جعل الانتفاضة فِي مقام هَذَا الحزب بوصفه حركة إرهابية تهدد المصالح الأمريكية، حسبما تشير التقارير الأمريكية، ورُبَّمَا كَانَ هَذَا الاعتبار هُو الَّذي ألقى ببعض الغيوم عَلَى موقف رئيس الحكومة اللبنانية مِنَ الحزب. إذَا صح هَذَا المسلسل فَإنَّ إسرائيل سَوْفَ تنجح ـ رغم فشلها حَتَّى الآن ـ فِي هزيمة الكفاح الفلسطيني، ممثّلاً فِي انتفاضته وسلطته الوطنية. ولِذَلِكَ فَإنَّهُ مَا دامت إسرائيل تنوي إبادة هَذَا الشعب أيًّا كَانَت مواقف منظماته، فالواجب أنْ يتحد الجميع فِي مواجهة هَذَا الخطر.

كلمة أخيرة : لسنا بحاجة إلَى تأكيد حَقّ الشعب الفلسطيني فِي مقاومة الْمُحْتَل الغاصب المعتدى بكُلِّ السبل، وتحرير أرضه مِنْ أشد أعدائه عنصرية، وهم بقايا وجيوب الاحتلال الإسرائيلي وَمستعمراته، الَّتي تدنس سماء فلسطين. ولا شَكَّ فِي أنّ الهاون الَّذي يُطْلَق مِنْ حين إلَى آخر حَتَّى داخل حدود إسرائيل، وهِيَ عمليات رمزية للغاية، لَيْسَ لتذكير المجتمع الإسرائيلي بِمَا يجرى داخل المدن الفلسطينية مِنْ تدمير وإبادة، ولَيْسَت هَذِهِ الطلقات الرمزية غَيْر المتناسبة إطلاقًا مَعَ كثافة الهجمات الصاروخية والمدفعية الَّتي يشنها الجيش الصهيوني إلاَّ رَد متواضع يجيزه القانون الدَوْلي ولا يشترط لشرعيته سِوَى أنْ يَكُون رَدًّا عَلَى هجوم مسلح فِعلي، وأنْ يَكُون مناسبًا مَعَ هَذَا الهجوم، وبالقدر اللازم لرده. ولِذَلِكَ فَإنَّ للشعب الفلسطيني الحق فِي استخدام كُلِّ الوسائل داخل وخارج أرضه لإشعار العدو بعزمه عَلَى الانتقام. ووَمَا دام الوجود الصهيوني يستهدف الوجود العربي ذاته؛ فَإنَّ التضامن بَيْنَ جميع المنظمات العربية

السياسية والعسكرية لدعم هَذَا الوجود والرد عَلَى هَذَا العدوان الإرهابي الغاشم ضرورة واقعية تجد سندها فِي مبادئ القانون الدَوْلي المعاصر .

وَالحق أنَّ السلطة الفلسطينية مَهْمَا جارت عَلَى عناصر فلسطينية تقربًا إلَى إسرائيل وَتوسلاتها إلَى سلام زائف، فَهِيَ فِي نهاية المطاف لَيْسَت فِي نظر إسرائيل سِوَى أداة لتحقيق أهدافها إحراقًا لَهَا فِي نظر قواعدها الشعبية، وإفراغًا لَهَا مِنْ شرعيتها السياسية الحقيقية .

فَهَل ينجح الفلسطينيون فِي تبديد مخاطر هَذِهِ الفتنة الكبرى، فِي ظروفهم الصعبة مِثْلَمَا نجح اللبنانيون فِي اعتبار حزب الله وحركته المقاومة المشروعة ورافع لواء نضاله مِمَّا اضطر إسرائيل إلَى الانسحاب مِنَ الجنوب اللبناني بَعْدَ أنْ فَقَدت رهانها عَلَى استعداء الحكومة عَلَى هَذَا الحزب فِي لبنان، بَلْ واستعداء العالم كله فِي قمة شرم الشيخ عام ١٩٩٦ م عَلَى هَذَا الحزب الَّذي يتمسح العرب الآن فِي بطولاته ؟. هَذَا مَا يأمله الجميع، وهم واثقون مِنْ تحققه .

٨ـ السلطة والمقاومة

مصير واحد وهدف مشترك

أعاد شارون بخطابه يوم ٢٠٠١/١٢/٣ القضية إلى ما قبل محاولات السلام ومؤداها أن المشكلة ليست فى محاولة إقامة السلام وإنما المشكلة هى إنقاذ شعب إسرائيل من تهديد الفلسطينيين، وهومايبرر حملته لاقتلاع الفلسطينيين ليس دفاعاً عن النفس وإنما هودفاع عن البقاء. ولما كانت الإبادة قد أصبحت سياسة رسمية لحكومة إسرائيل فإن السلام غير متصور بين شعبين أحدهما حسبما تزعم إسرائيل وهوالشعب الفلسطينى الأعزل المحاصر يريد أن يبيد الشعب الإسرائيلى المسلح المدعوم من الولايات المتحدة دعمًا مطلقًا .

هذه الحقيقة يقابلها إغفال عربى ومن جانب السلطة الفلسطينية مما دفعهما للعمل فى اتجاه مختلف هوبالضبط ما سيؤدى إلى الكارثة للفلسطينيين، وإلى الانتصار المؤزر بالنسبة لإسرائيل، ذلك أن العالم العربى يطالب إسرائيل بمهلة لعرفات حتى يتمكن من إسكات المقاومة وفرض ما أسمته السلطة الشرعية والقانون، وكأن القضية ليست تصفية السلطة وعرفات والتفاف الشعب حولها وإنما القضية هى أن معسكر السلام الذى يضم إسرائيل وعرفات لابد أن يحارب معسكر الإرهاب الذى يضم المقاومة، وهوالنهاية الحقيقية للسلطة والمقاومة معًا. وإذا كان شارون قد حصل على ترخيص أمريكى وسكوت أوربى بإفناء الشعب الفلسطينى ما دامت الحياة لاتتسع إلا لشعب واحد على أرض واحدة، فإن شارون قد حصل فى الداخل على ترخيص آخر من شعب إسرائيل على أن يتخذ زعيمه مايراه ضروريًا للحفاظ على بقائه فى دولة إسرائيل. وبالطبع نشطت أجهزة الإعلام الأمريكية والإسرائيلية وأبواق الدعاية فى توزيع فكرة مؤداها أن الشعب الفلسطينى يرفض السلام ويفضل الإرهاب وأن السلطة الوطنية الفسطينية ليس لوجودها فى نظر إسرائيل إلا مبرر واحد وهوكبح جماح هذا الشعب ومنظماته "الإرهابية" وكفها عن تهديد شعب إسرائيل "المسالم"، ومتى فقدت السلطة الفلسطينية مبرر بقائها أصبح واجباً زوالها، بل إن إزالتها أصبحت واجباً على إسرائيل ما دامت تشجع الإرهاب بدل كبحه ولجمه، كما أصبح عرفات نفسه رأس الإرهاب، ومؤدى ذلك أن سلام الشعب الإسرائيلى وأمنه

لن يتحقق إلا بإزالة السلطة والقضاء على المنظمات الفلسطينية التى أعلنت واشنطن فعلاً أنها منظمات إرهابية، ولإسرائيل الحق فى تصفيتها ضمن الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب، استكمالاً لحملة واشنطن التى بدأتها فى أفغانستان وكأن واشنطن عينت إسرائيل وكيلاً عن الحملة الدولية لمكافحة الإرهاب لتصفية الفلسطينيين، وأنه ما دام السلام أمرًا مستحيلا مع "الإرهاب" الفلسطينى، وعجز القوة أوتقاعسها عن التصدى للمنظمات الإرهابية، فإن الحل السعيد هو اقتلاع الشعب الفلسطينى ولتكن الإبادة بديلاً عن دفعه إلى الهجرة.

ومن ناحية أخرى، فإن السلطة الوطنية قد وضعت فى أسوأ المواقف حرجًا. فهى تؤمن بأن المفاوضات أياً كانت نتيجتها فلن تحوِّل مسار الصراع من اعتداء إسرائيلى يومى ضد الشعب الفلسطينى بما يستتبعه ذلك من ردود فلسطينية متنوعة دافعها الانتقام واليأس من الظلم الإسرائيلى، ومن عجز السلطة عن حماية شعبها، وردًا على إطلاق يد إسرائيل فى الشعب والأرض تعتقل من تشاء وتصفى من تريد وتهدم المنازل على أصحابها مما أشعر الشعب الفلسطينى أن موته أفضل من حياة بائسة ذليلة. وتؤمن السلطة مع ذلك بأن شارون لايؤمن بالتفاوض إلا لترتيب أوضاع أمنية تمكن جيشه من مواصلة سياسة الإبادة، مثلما تؤمن بأن الشعب الفلسطينى وأبطاله الذين وهبوا حياتهم للشهادة فداء لوطنهم وشعبهم وأسرهم وذودًا عن كرامتهم ودينهم من حقه أن يقاوم الظلم والاحتلال وأن ينزل بالمواطن الإسرائيلى بعضاً مما ينزله الجيش بالشعب الفلسطينى، أينما وجد هذا المواطن فى الأراضى الفلسطينية مستعمرًا أوفى منازله فى المدن الإسرائيلية.

ولكن السلطة مضطرة إلى أن تستنكر الأعمال الفدائية ضد الإسرائيليين خاصة المدنيين وأن تستمع إلى الطلبات الأمريكية والإسرائيلية بضرورة القبض على مدبرى هذه الأعمال إن كانت السلطة تريد حقًا أن تظل على قيد الحياة، ناهيك عن أنها تطمع فى الحديث مع شارون. فالسلطة فى موقف بالغ الحرج فهى مهددة بالتصفية بسبب عجزها عن احتواء ردود الفعل الفلسطينية على الجرائم اليومية الإسرائيلية وهى مهددة من ناحية ثانية بأن تثير حربًا أهلية فلسطينية وهذه المعضلة هى لب المشكلة الحقيقية الآن والتى تطرح سؤالاً ملحاً لا ينتظر اجتماعاً عربياً أوإسلامياً وهو: إزاء الانحياز المطلق الأمريكى لإسرائيل، وإصرار إسرائيل على إبادة

الشعب وقياداته وتصفية من تريد أواعتقاله أوتغييبه، كيف يمكن إنقاذ هذا الشعب من الوحش الإسرائيلى، ومن ضغطه على السلطة التى إن سكتت صفيت، وإن تحركت للقبض على زعماء المقاومة أضعفت هذه المقاومة وقدمت خدمة مجانية لإسرائيل، وربما جمعت هذه الزعامات فى مكان واحد لتقوم إسرائيل بتدميره بالجملة حتى دون شكر للسلطة، أواعتذار عن الجريمة. وفى ذلك فإن السلطة تخاطر بصدام يؤدى إلى تصفية متبادلة بينها وبين المقاومة بما يريح إسرائيل تماما من السعى إلى تصفية الطرفين، وفى هذه الحالة يتحقق الرهان الأول الشارونى ويتقدم الجيش الصهيونى لاحتلال الأراضى الفلسطينية رسميا بحجة وقوع الحرب الأهلية التى تهدد المستوطنين وتزعزع أمن الشعب الفلسطينى إزاء عجز السلطة عن القيام بذلك.

إن وقوع الفتنة هو أخطر ما يتعرض له الشعب الفلسطينى خاصة أن التاريخ يشهد أن الدم الفلسطينى المراق على أيدى الرفاق وأبناء العروبة أضعاف ما أراقته إسرائيل، ومهما فعلت السلطة فلن ترضي إسرائيل ولن تحقق شيئا بل تخسر كل شيء: المقاومة، الوجه الوحيد المشرق لأمة تعاني الذل وقتل الصغار بلا مبرر، والشعب، وثقة العدو المفقودة أصلا والذى لاتزال تصريحاته تتوالى وتؤكد معها المواقف الأمريكية أن السلطة غير قادرة على وقف العنف.

وبهذه الفتنة تحقق إسرائيل كل أهدافها: الخلاص من المقاومة والانتفاضة، الخلاص من السلطة الوطنية، وهى فى تقدير إسرائيل أثر من آثار أوسلو التى مزقتها حكومة شارون وتحركت خارج كل القيود والأطر والضوابط.

والأخطر من ذلك أن العالم العربى الذى أعلن عجزه عن إنقاذ الشعب الفلسطينى وينظر إلى واشنطن، تضرعا وخشية، ويستحثها بكل ما أوتي من عبارات الاسترحام أن تقوم نيابة عنه بهذه المهمة، ويحلم بعضه أن يوقع بين إسرائيل وواشنطن ويصل بعضه بحسن نيته إلى اعتقاد أوحتى مجرد مناقشة فكرة من أكثر الأفكار نفعا فى المنطقة من الآخر لواشنطن: إسرائيل أم العرب، وهلل بعض المثقفين العرب لاستبعاد واشنطن لإسرائيل من حملتي بغداد وكابول عامى ١٩٩١، ٢٠٠١ واعتبروها بشارة طيبة.

وأبلغ السيل الزبى أن المساعى العربية تتجه إلى الضراعة إلى إسرائيل لكي تعطى عرفات

مهلة بعد أن رأى بعينيه مدى توحش شارون وقدرته على شله ومنعه من الحركة، لعل هذه المهلة يتمكن خلالها عرفات من اعتقال المقاومة بما يسهل لشاورن المضى فى مخطط الإبادة دون مقاومة، ووقف الانتفاضة وقفاً فعلياً وربما تصفية من يعتقلهم عرفات.

إن هذا الاتجاه الخطير الذى تبدت مظاهره بوضوح سوف يدفع دفعًا نحو الكارثة الحقيقية، ولذلك فإننى أرجو أن يقدر العالم العربى الموقف حق قدره ويقرأ مخاطر توحش إسرائيل وانحياز واشنطن على مصيره ومصالحه وأن إفناء الفلسطينيين هو بداية فصل أشد قسوة ضد العالم العربى، فإن لم يستطع، ولن يفعل قطعًا، فليترك المقاومة تبادر بما تملك، وهو قليل، ولتتوحد السلطة مع المقاومة، لأن مصيرهما مشترك، والمؤامرة عليهما واحدة، فليمت الجميع فى خندق واحد بيد العدو خيراً من أن يقتل الأخ أخاه لصالح عدو لايرحم.

وعلى العالم العربى أن يؤكد أن نقطة البداية وهى توقف إسرائيل وسلطة الاحتلال عن خنق الشعب والتضييق عليه وتصفية زعاماته وإذلاله، فإسرائيل هى البادئة، وإن مقاومة المحتل فى أى مكان وعلى أى وجه حق مشروع، وأن يحدد العالم العربى إجراءات معينة لكى يترجم هذا الموقف الواضح إلى سياسات عملية فى المواجهة.

٩ـ مصير الانتفاضة

في صراع الإرادات والأقدار*

مَعَ كُلِّ إجلالنا للانتفاضة الفلسطينية وقوافل الشهداء الَّذِينَ يسقطون كُلّ يوم إمَّا بطولة أوغيلة، فَإِنَّهُ مِنَ الطبيعي أنْ يساورنا القلق إزاء مستقبل الانتفاضة. ولِهَذَا القلق مَا يبرره، كَمَا أنَّ القلق يدفع إلَى التماس العلاج بَعْدَ تأصيل الداء. ولِذَلِكَ أرجو ألاَّ يُوحِي العنوان بِأَيّ شكل بِأَنَّهُ يقصد المساس بالروح المعنوية لأبطال فلسطين، فأحياؤهم إلَى نصر وشهداؤهم أحياء عِنْدَ ربهم، وخير الشهادة الموت دُونَ الوطن والأهل والشرف فِي مصارعة عدو سَلَّطَهُ الشيطان عليهم، فَهَذَا بلاء مِنْ ربكم عظيم .

لابُدَّ فِي بداية هَذِه السطور مِنْ أنْ ألفت النظر إلَى أنَّ المرحلة الراهنة قَد تجاوزت صفة الانتفاضة، ودخلت مرحلة الثورة الشاملة ضِدَّ الاحتلال الإسرائيلي وهَذَا هُو مصدر القلق الإسرائيلي؛ لأنَّ إسرائيل تعلم —بحكم خبرتها فِي فلسطين وهِيَ خير مَنْ يستفيد مِنْ عبر الأيام ودروس السنين— أنَّ الانتفاضة الأولى قَد حُرِّكَت ثُمَّ وُظِّفَت سِيَاسِيًّا أوبعبارة أُخْرَى تدخلت منظمة التحرير لتحريكها، وهَذَا حَقّ وشرف للانتفاضة مَا دامت المنظمة معبرة عَنْ آمال الوطن، ولَيْسَت طرفًا أجنبيًّا مشبوهًا، ثُمَّ فِي لحظة معينة قدرت المنظمة أيْضًا أنَّ الموقف قَد تحرك بالقدر الَّذِي يُمكِنُهَا مِنْ لفت نظر إسرائيل إلَى أهمية التفاوض فِي وقت كَانَت المنظمة فِيهِ مرفوضة إسرائيليًا وأمريكيًا، وتوصف بالإرهاب وتُطَارَد مِنْ أجهزة الأمن الأمريكية، كَمَا تُطَارَد قانونيًّا عَلَى الساحة الأمريكية، وفِي إطار الأمم المتحدة.

ثُمَّ انفجرت أزمة الخليج المدوية واختلطت أوراق الخليج مَعَ أوراق الصراع العربي الإسرائيلي، وخرج الطرف الإسرائيلي بحظه وذكائه أيْضًا منتصرًا مقارنةً بالطرف الفلسطيني الخاسر، والطرف العربي الجريح، والَّذِي لا ينكر أنَّ تحرير الكويت تَمَّ بتصميم أمريكي لا يلين، استثمر لمصالح أمريكية وإسرائيلية، وترك أثره واضحًا فِي مسيرة التسوية مُنْذُ مدريد،

* نشر هَذَا المقال فِي جريدة الحياة يوم ٢٠٠١/٨/٢٦ أي قبل أحداث سبتمبر بأيام وقبل الاجتياح بعدة أشهر.

والَّتِي لَمْ يَكُن للمنظمة فِيهَا مَا تريد، فعوضته بتضحيات فلسطينية إزاء بداية التراجع العربي فِي لحظة لَمْ يَكُن واضحًا أنَّ محادثات واشنطن عام ١٩٩٢ م / ١٩٩٣ م سَوْفَ تثمر فِي الحقل الفلسطيني الكامل بقيام إسرائيل مقابل : مجرد اعتراف إسرائيل بِأَنَّ المنظمة مجرد وكيل عَن الشعب الفلسطيني إذَا قَرَّرَت إسرائيل أنْ يَكُون هَذَا الشعب طرفًا فِي التسوية .أمَّا انتفاضة الأقصى الَّتِي انطلقت فِي ظروف معينة، فَقَد تحولت إلَى ثورة شملت : كافة الأراضي الفلسطينية، وعرب ١٩٤٨ م، ونسلهم، الَّذِينَ يعيشون فِي رحم إسرائيل، وهدف الثورة لَيْسَ تحسين موقف السلطة الوطنية فِي مفاوضات انسحاب إسرائيل، وإنَّمَا إرغام إسرائيل عَلَى الانسحاب دُونَ شرط، ثُمَّ يَكُون للمفاوضات بَعْدَ ذَلِك موضوع آخر، وهُووضع اللمسات الأخيرة عَلَى القضايا العالقة، وعَلَى مستقبل العلاقات الفلسطينية – الإسرائيلية .

وكَانَ أمام إسرائيل خياران: إمَّا الاستمرار فِي المماطلة فِي تنفيذ مستحقات أوسلو ومَا تلاها، بحَيْثُ لا تشكل إسرائيل فِي الحساب الختامي شيئًا مذكورًا، وإمَّا الكشف عَن الهدف الحقيقي لإسرائيل، واختصار الوقت والمسافة، وأنَّ الهدف الحقيقي هُوأنْ تُقْعِدَ صاحب الحق عَن المطالبة بحقه، ولَو إلَى حين، أوأنْ تُقْعِدَهُ إلَى الأبد عَنْ طريق عمليات عسكرية منظمة تقضي عَلَى القيادات، ثُمَّ تشيع الإرهاب فِي جموع النَّاس، فتحملهم: إمَّا عَلَى السكوت، وإما عَلَى الرحيل مِنَ الأرض، أومِنَ الحياة كلها، ويقوم شارون الآن بالخيار الثاني، وهَذَا هُو مبعث القلق عَلَى الانتفاضة. أمَّا السبب الثاني لِهَذَا القلق الجدي، فَهُو كَمَا ذكرنا مرارًا صمت العالم العربي أوتحركه غَيْر المجدي، وفْق قاعدة العمل الدبلوماسية المخملية، عِنْدَمَا كَانَ تعبيرًا عَنْ الدَّوْلَة أصلاً فِي أيَّة صورة، ناهيك عَنْ تعبيرها عَنْ "دهشتها"، مما يثير القلق والأرق لَدَى الدَّوْلَة الأخرى، أوتحركه فِي اتِّجَاه آخر،وكَأَنَّ إسرائيل لا تقوم كُلَّ يوم بإبادة منظمة لشعب تجدُّ السير نحو انقراضه، وكُلّ ذَلِك يشعر إسرائيل حقها بِأَنَّهَا محظوظة، وأنَّهَا ستخطئ كُلّ الحسابات إنْ لَمْ تستفد مِنْ هَذَا السخاء القدري .

فالصراع فِي هَذِهِ اللحظة قَد تحول إلَى صراع إرادات يجمعها العزم عَلَى المضي فِي الشوط إلَى نهايته، ويفترق الطرفان فِيمَا وراء ذَلِك كُلّ الافتراق فِي القدرات والتحالفات والفرص.

ولست بحاجة إلى تكرار ما يعلمه حتى أطفال العالم العربي من أن إسرائيل تستخدم كل قوتها ومن ورائها الولايات المتحدة، ووفق برنامج محدد للإفناء والاقتلاع ، وعلى أرض مكشوفة يصعب فيها الاختباء ويعسر فيها تهريب الأسلحة ناهيك عن تبرير العمليات وانعدام الأسلحة الفعالة المؤثرة ضد الجيش الإسرائيلي وطائراته الأمريكية، وذلك مقابل شعب لا يملك إلا الاعتماد على الله وروحه رخيصة في سبيل الحق، وهو موقن أنه عرضة للإفناء، وقد ارتدت إليه أصوات استثارت النعرة الدينية والقومية وتأكد له أنه يواجه مصيره وحده، هذا الموقف المأساوي الذي لم يشهد له التاريخ مثيلا، والذي يسجل أن الشعب الذي يطالب بحقه في الحياة وزوال الاحتلال يتعرض للإبادة، وكأنه حق من حقوق المغتصب أن يسكت الصوت الذي تطاول على سطوته، أو أن إبادته قربان لحياة الشعوب العربية الأخرى تماما، كما كان رئيس وزراء بريطانيا تشمبرلين يكرر في لقاءاته مع مجلس العموم من أن تنازلاته لهتلر هي ثمن السلام في المستقبل لبقية الشعوب، فرأى هونفسه كيف أدت هذه السياسة الانهزامية إلى وقوع بريطانيا نفسها تحت رحمة الضغوط العسكرية اليومية الألمانية، لولا تدخل الولايات المتحدة.

من أسباب القلق على الانتفاضة أيضا أن شارون يجد تجديدا يوميا للثقة بسياساته من معظم شعب إسرائيل، وأنهم يرون أنها فرصة تاريخية، ربما ورد ذكرها في توراتهم أن هذا العام الأول من الألفية الثالثة الميلادية هو الانتصار الثاني لداوود الجديد (شارون) على جالوت المسكين (عرفات). وما دام اليهود يخططون وشارون هو صاحب الخطة المحورية في قلب الصراع من عربي إسرائيلي إلى فلسطيني إسرائيلي، حتى تنهي إسرائيل ـ بقوتها المتفوقة ـ الشعب الفلسطيني، فهل يمكن أن نفترض أن إسرائيل عندما قبلت في أوسلو عودة عرفات إلى فلسطين أن تعتقل هذا الشعب داخل أرضه بكل قياداته، حتى تنهي حياة الجميع وتضع الجميع تحت رحمتها ؟، وهل من الشجاعة أن نترك كل القيادات الفلسطينية هدفا مباشرا للقنص الإسرائيلي، حتى يظل الشعب الفلسطيني عقودا مقبلة يبحث له عن قيادة، أم أنه لا يجوز الفصل بين الشعب وقيادته، وأن قرار القيادات يعد تخليا عن الشعب وتعزيزا للفكرة الرائجة من أن للقيادات حصانة أساسها تعاونهم مع إسرائيل، ثم أن فرارهم سوف ينهي الثورة

الفلسطينية، كَمَا أدَّى نَفْي سعد زغلول إلَى انطفاء أوار ثـورة ١٩١٩ م، وهَـلْ تستطيع إسـرائيل بعملية حسابية وخلال فترة زمنية ـ قَد لا تطول ـ أنْ تُصَفِّي رموز الثورة جميعًا، فلا يَبْقَى سِوَى الأطفال، فِي أيديهم حجارتهم والأسى يثقل قلوبهم الفتيَّة والغضب يعصـف بجوانحـهم، وإلَـى جوارهم بقايا أمهات يشهدن عَلَى ملحمة هَذَا القرن ومهزلة كُلّ القرون ؟

لا أخفي أنني كُلَّمَا اقتربت فِي التحليل مِنْ هَذِهِ النتيجة أشعر بغصة العاجز .

إنَّ الرهان فِي تحليل المستقبل مِنَ الناحية العلمية يجب أنْ يسـتبعد المعجـزات، ويجـب أنْ يركز عَلَى عناصر القوى الْمُحْتَلَّة وعوامل التآكل الْمُحْتَملة أيْضًا فِي موقف العدو. ورغم أنني مُنْـذُ حرب ١٩٧٣ م أترك مساحة معقولة للبعد الثالث فِي صراع الأقدار، فَإِنَّنِي أميل فِي هَذَا الحالـة الشاذة واستنادًا إلَى تفردها عَنْ حالة الصراع العسكري إلَى التعامل مَعَ المعطيات المادية القائمـة والفرضيات الْمُحْتَمَلَة.

فَعَلَى الجانب الإسرائيلي هُنَـاكَ أربعـة عوامـل أساسـية، تشـكل صلـب الموقـف الإسـرائيلي يتقدمها شارون وحكومة الوحدة الوطنية المجمعة مَعَ الشعب عَلَى خط فناء الشـعب الفلسـطيني وإدارة دبلوماسية وإعلامية جسورة فِي الداخـل والخـارج لتحقيـق هَـذَا الهـدف، والـرد الفـوري النشط عَلَى كُلِّ صغيرة وكبيرة يُمْكِن أنْ تؤثر عَلَى هَذَا الخط. يليها موقف أمريكي لا يتزعزع فِـي مساندة الخط الإسرائيلي علنًا، مَهْمَا كَانَ مُخَالِفًا لأبسط مبادئ أي قانون، والإصرار عَلَـى أنَّ مَـا تقوم بِهِ إسرائيل هُوالدفاع الشرعي النشـط عَـنِ النفـس، وهُـو مصطلح جديـد يعـني ببسـاطة أنَّ الحياة لواحد فقط، إمَّـا الشـعب الإسـرائيلي، وإمـا الشـعب الفلسـطيني، وأنَّ الحيـاة لا تتسـع للشعبين، كَمَا أنَّ الأرض لا تتسع أيْضًا لشعبين، وهُوقلب المعادلة الَّتِي بـدأت بِـأَنَّ الأرض لِمَـن يقدر عَلَى تعميرها، أي للشعب الفعال، ومَا دام الشعب الفلسطيني فِي نظر اليهود لَيْسَ كَذَلِكَ، فَهُويسكن أرضًا تُعَدُّ خالية وتؤول بحسب هَذِهِ القاعدة إلَى اليهود .

ثُمَّ بدأت المعادلة تتحور تحورًا طفيفًا صوب القول إنَّ هُنَاكَ أرضًا واحـدة وشـعبين يتصارعـان عَلَيْهَا، والغلبة لأكثرهما قوة ومنعة، ثُمَّ تعود إسرائيل الآن إلَـى الصيغـة الأولى، وهِـيَ تـدرك أنَّ الشعب الفلسطيني لَمْ تتحقق لَهُ صفات الكفاءة للبقاء. ويلي هَذَا العـامل سـكوت أُورُبِّـي وانتظـار

عربي أوقُلْ : تفرج عربي على نتيجة هَذا المجازر، فَإنْ بقي الشعب الفلسطيني هنأناه، وإذَا فني ترحمنا عَلَيْهِ وشرح كُلّ مِنَّا عذره فِي التخلف عَنْ نجدته .أمَّا عَلَى الجانب الفلسطيني، فَلَيْسَ فِي صفه سِوَى إرادة لا يطويها إلاّ الموت، ولا يفتُّ فِيهَا تعمد إسرائيل تصوير مشاهد الإبادة والتمثيل بالقتلى وإهانة الْجَرْحَى والمختطفين وإذلالهم، حَتَّى تخيفهم هَذِهِ المشاهد وتقريب إسرائيل لِكُلّ واحد منهم لحظة نهايته دُونَ أنْ يحول بَيْنَهَا وبَيْنَ مَا تريد حائل. وكأنها تِلْكَ اللحظة الَّتِي استباحت فِيهَا إسرائيل كُلّ شيء بِمَا فِي ذَلِك المسجد والكنيسة، مَا دامت لا تأبه لخالق المسجد والكنيسة، ولا تعبد إلاّ القوة ولا تصلي إلاّ فِي مذابح البشر والسلخانات عَلَى النحو الَّذِي صوره ذَاتَ اليوم محمود درويش :

الله أصْبَحَ غائبًا يا سيّدِي فَبع الكنيسةَ أوبساطَ المسجدِ

ولَكِن صمود الفلسطينيين يقوم عَلَى أنَّ الله حَقّ وأنَّ نصره هُوالمكافأة، وأنَّ الشهادة لا تستحق إلاّ لِمَن يختارهم الله للشهادة . فَهَل تدرك إسرائيل أنَّهَا حولت الصراع مَعَ الفلسطينيين بسلوكها العابث إلَى صراع بَيْنَ الإيمان والكفر، وإلَى تعرية زيف مَا ينادي بِهَا المتشدقون بوعود التوراة الَّتِي كتبوها بأيدهم، كَمَا ورد فِي القرآن الكريم فِي سورة البقرة – الآية ٧٩ ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ .

وإذَا كَانَ الإيمان الفلسطيني هُو أساس الشهادة وأنَّ ذَلِك يزلزل الأرض تحت أرجل الغاصبين المتجبرين، فَإنَّ معادلات الصراع سَوْفَ تدخل طورًا جديدًا تعجز تحليلاتنا عَن التنبؤ بِهَا. ولَكِن مِنْ ناحية أُخْرَى يجب أنْ ننبه بشدة إلَى أنَّ إسرائيل لا تهدف فقط إلَى إفناء الشعب الفلسطيني، بَلْ إلَى تَسَيُّدِ العالم العربي، وهَذَا هُو السبب السياسي الَّذِي يدعو العالم العربي إلَى الدفاع عَنْ بقائه وأنْ يَكُون لَهُ سياسة متماسكة نشطة إزاء الولايات المتحدة وإزاء إسرائيل، وأنْ تنهض بذَلِك الجامعة العربية، عَلَى الأقل فِي مجال تقديم أفكار التحرك العربي الشعبي والحكومي، قبل أنْ يصبح إلغاء الجامعة ومؤسسات العمل المشترك شرطًا مِنَ الشروط الَّتِي تمليها إسرائيل عَلَى العالم العربي فِي المرحلة المقبلة.

١٠ـ منهج باراك وتصوره

لتسوية الصراع العربى الاسرائيلى

اعتاد المفكرون والعرب الإسرائيليون أن يتصوروا مهمة وهمية لدى الطرف الآخر على أساس أنه غامض ولابد من البحث عن الحقيقة وراء هذا الغموض بنظرة المفكر العربى والمسلم إلى الغرب بما فى ذلك الولايات المتحدة وإسرائيل، فلا نزال نذكر أن كلينتون وآل جور قد قدما برنامجهما الانتخابى عام ١٩٩٢م بكل وضوح وطبع البرنامج فى مصر باللغة العربية وكان يتضمن أجزاءاً كبيرة عن إسرائيل والشرق الأوسط، ويقولان بوضوح إنهما شديدا الإعجاب بإسرائيل ويريان أنها ظلمت من الإدارات الأمريكية المتعاقبة التى لم تقدِّر لها قدرها وأن نجاحهما فى الانتخابات سوف يمنح لهما فرصة تصحيح هذا التشوه فى الموقف الأمريكى إزاء إسرائيل، وبالفعل أوفى الرجلان بعد نجاحهما بما وعدا به وسوف يكتب التاريخ أن عهد كلينتون هو أزهى عصور العلاقات الأمريكية الإسرائيلية رغم التحديات كما أن الإدارة الأمريكية قد توفر على إدارتها فى أهم مواقعها وحصونها شخصيات يهودية مخلصة فى وزارات الدفاع والخارجية بالإضافة إلى مستشار الرئيس للأمن القومى وكل من مبعوثى الرئيس إلى الشرق الأوسط (روس وأنديك) ورغم هذه الحقيقة الساطعة فقد مارس الفكر العربى والإسلامى ولعه بالبحث عما اعتبره غموضا فى الإدارة الأمريكية الجديدة.

وقد تكرر نفس الموقف بعد نجاح باراك فى الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة حيث انقسمت التكهنات العربية والإسلامية حوله دون أن تقرأ ما يقوله الرجل بنفسه، بين متفائل ومتشائم مع غلبة التفاؤل. وهم يقيسون درجة التفاؤل والتشاؤم على مقياس خاطئ وهوالمقارنة المتسرعة بين نتنياهو وباراك متجاهلين أن باراك قد بلغ غايته من المجد العسكرى فى خدمة المشروع الصهيونى وأهله ذلك لكى يثب إلى مسرح المجد السياسى، فكان الرجل قاطعا وواضحا بأقواله دون أن يترك فرصة للمراقبين العرب والمسلمين لكى يمارسوا هوايتهم المفضلة فى الكشف عن المجهول ويبقى فقط أن تقرأ أفكار الرجل وتصوراته من خلال أقواله وبرنامجه للسلام فى

المنطقة. وتشير تفاصيل زيارة باراك للولايات المتحدة وتصريحاته المختلفة ولقائه بعرفات إلى الملامح الرئيسية لخطته فى السلام، **ونوجزها فيما يلى:**

أولا : يطمع باراك أن ينتهى الصراع العربى الإسرائيلى قبل نهاية هذا القرن وبالتحديد خلال ١٥ شهرا منذ ذلك الحين أي من أكتوبر عام ٢٠٠٠ م، فإن أصبحت التسوية جاهزة ومقبولة انتقلت المنطقة بأسرها إلى المرحلة الأخرى وهى السلام الشامل دون أن يكون عادلا بالضرورة لأن العدل مسألة قيمية ونسبية بينما الشمول مسألة كمية ومطلقة.

ويبدو أن باراك قد حدد هذه المدة الزمنية حتى يقدم للرئيس كلينتون بعض ما أنكره عليه نتنياهو من نجاح وانتصار لكي يسجل التاريخ أن الصراع قد انتهى فى عصره بينما ضن عليه نتنياهو ببعض الأوراق التى كانت ضرورية لإنقاذ كلينتون عندما كان بحاجة إليها عندما كان فى محاكمته فى فضيحة "مونيكا لوينيسكى". غير أن مساعدى باراك وخاصة المتحدث باسم الخارجية جادى بالتينسكى قد أوضح أن نهاية العام القادم ليس بالضرورة هو المدة التى تكون فيها كافة اتفاقات السلام قد أبرمت ولكنها الفترة التى تكون فيها المفاوضات الصعبة مع السوريين والفلسطينيين قد وصلت إلى حل (ينوي حزب اللكود إلى التقدم باقتراح بسحب الثقة من باراك بسبب تحديده فترة زمنية لانتهاء المفاوضات مع العرب على أساس أن ذلك يضعف موقف إسرائيل).

ثانيا : أوضح رئيس الوزراء الإسرائيلى أنه سوف يلتزم باتفاق "واي ريفر" الموقع فى أكتوبر ١٩٩٨م بين الجانبين الإسرائيلى والفلسطينى فى واشنطن ولكن باراك أوضح أيضا العكس تماما عندما أصر على أنه ينوي أن يتم تنفيذ هذا الاتفاق فى إطار مفاوضات الوضع النهائى وليس بشكل مستقل ومسبق وذريعته فى ذلك أن عامل الوقت يضطره إلى اختصار المراحل.

ثالثا : طالب باراك زعماء اليهود فى الولايات المتحدة بمساندة عملية السلام كما يراها وليس مساندة موقف معين مما أدى إلى تفكك الجالية اليهودية وأحدث انقساما بينها مثلما

حدث مع نتنياهو، وقد أراد باراك بذلك أن يطلق يده وأن يكون هو صاحب القرار دون أن يشرك الجالية فى قراراته.

رابعا : أوضح باراك طبيعة نظرة الإسرائيليين إلى عرفات والفلسطينيين ومستقبل العلاقة معهما بوضوح شديد عندما قال بالحرف بعد لقائه بعرفات إن خطته للسلام ليست للاستعراض أولإظهار شغفه بالأخوة والحب الإقليمى بينما هدفه هو فصل العرب عن الإسرائيليين وليس دمجهم، مؤكدا أنه لم يتردد فى قتال العرب ولن يتردد فى إقامة السلام معهم. وأوضح باراك أيضا أن عرفات ليس صهيونيا أوعضوا فى جماعة بنايبرس تعليقا على إشارة الصحافة إلا أن باراك كان قد وصف عرفات بعد لقائه الأول به بأنه صديق وشريك، فصحح باراك هذا الوصف لعرفات قائلا: نحن شركاء متشاركون (We are parterish rivals) .

خامسا: أوضح باراك أن مفاوضات الوضع النهائى مفتوحة ولكنه أكد على موقف إسرائيل من القدس واللاجئين على أساس أن هناك مصالح متناقضة بين الجانبين العربى والإسرائيلى، وأنه من الضرورى للجميع أن يعملوا معا لإنقاذ السلام وألا يتركوا المنطقة تتعرض للتمزق أوالانفجار أوبحسب قوله: علينا أن نصعد معا كفريق نحو القمة وإلا فسوف نسقط جميعا فى الهوة.

سادسا : أشار باراك إلى أنه لا يعتقد أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية يجب أن تشغل نفسها بأن تعد أفراد البوليس الفلسطينيى فى غزة إلى مهمة الوكالة فى اتفاق واي ريفر، وقال: إنه يعتقد أن الدور الأمريكى يجب أن يكون أكثر خصوصية. وقد دافع جيمس روبين المتحدث باسم الخارجية الأمريكية عن مهمة الوكالة ردا على ملاحظة باراك بأن سبب دور الوكالة هو الانهيار فى عملية السلام الناجم عن عدم الثقة بين الجانبين.

حدد باراك طبيعة الدور الأمريكى الجديد فى عملية السلام وهوأن يقتصر على أن يكون دور المسهل للعملية وأن تتوقف واشنطن عن القيام بدور الحكم ورجل البوليس والقاضى. ودلالة هذا الدور المقترح من جانب باراك واضحة وهى أنه ينسجم مع الموقف الإسرائيلى التقليدى الذى

ينادى بأن تترك واشنطن طريق التعامل بين العرب والإسرائيليين لإسرائيل لأنها الأقدر على فهم العرب، على أن يقتصر الدور الأمريكى على مساندة المواقف والخيارات الإسرائيلية.

وقد وافقت الولايات المتحدة على تصور باراك فماذا ينتظر العالم العربى والإسلامى من نتائج عندما يشرع باراك فى تطبيق تصوره المتقدم على جميع المسارات؟ دون أن نصادر على المطلوب أو نستبق الأحداث، يكفى أن نشير إلى أن باراك أحرص على تسجيل مجده الصهيونى من إرضاء العرب أوغيرهم، وأنه واضح فى تصوره للمصلحة الإسرائيلية مع حرصه على أن يستخلص هذه المصلحة وهو مبتسم بدلا من الأسلوب الفظ الذى تعامل به نتنياهو.

ويبدو أن باراك يتصرف وفق طبيعة شخصيته وفهمه لحدود التحرك الإسرائيلى الواسعة والاستمرار الأمريكى المطلق للمساندة، مما أشاع فى العالم العربى شعورا بالارتياح الكاذب حول نوعية السلام الذى سيقدمه لهم باراك فلاشك أن نتنياهو قد ضمن موقعه فى قائمة الخالدين فى التاريخ الصهيونى، ولا نتصور أن باراك سوف يخذل ناخبيه أوأنه بابا نويل الذى يقدم هدايا أعياد الميلاد لأطفال العالم العربى.

١١ـ بين عرفات وشارون
وعشرون عاما من الصراع

عندما واجه شارون عرفات عام ٢٠٠١ تذكر المواجهة الأولى فى بيروت عام ١٩٨٢ وعشرين عاما من الصراع العربى الإسرائيلى تغير فيها كل شيء بدءا بمعطيات الصراع وتحالفاته، وصورة الرجلين لدى كل منهما الآخر، وصورة الرجلين لدى الآخرين عربا وأوربيين، مثلما تغير سياق المواجهة وإطارها فى الحالين.

ففى عام ١٩٨٢ عندما غزت إسرائيل بيروت فى الخامس من يونيو لتذكر العرب بتاريخ مماثل وقع قبلها بخمس سنوات فقط، وكانت إسرائيل قد انسحبت لتوها من سيناء ماعدا طابا، وكانت الحرب الأهلية اللبنانية على أشدها، وكان الخلاص من المقاومة الفلسطينية بوصفها طرفا فى تحالفات الحرب الأهلية وتتخذ من لبنان منطلقا لعملياتها ـ كان هدفا مشتركا بين إسرائيل وبعض القوى فى المعسكر العربى. وقد خاطر شارون يومها كوزير للدفاع باحتلال بيروت، كما ابتكر فكرة إخراج المقاومة مقابل مجرد سلامة أعضائها ورئيسها ياسر عرفات. ولاشك أنه بنى تقديره على فكرة تقدمت بخطوات واسعة بالفكر الإسرائيلى تجاه هذه المسألة فى ذلك الوقت، ومؤداها أن العالم العربى بعد تحرير سيناء وتحييد مصر يختلف عما قبله، ولذلك كانت فكرة غزو بيروت فى نظر الحكومة الإسرائيلية ضربا من الانتحار لقائد عسكرى جسور يحب المغامرات لاعتقادهم أن احتلال عاصمة عربية سوف يقلب الدنيا على إسرائيل ويحرك الأحجار لتكتب نهاية إسرائيل،وربما كان هذا الاعتقاد هوالذى غلب على ظن الحكومة الإسرائيلية عندما أزاحت عن خيالها مجرد وهم غزوها للقاهرة مرتين عامي ١٩٦٧، ١٩٧٣.

وبالفعل كان رد القاهرة وحده أشد الردود العربية، إذ سحبت سفيرها الذى لم يكن قد قضى فى إسرائيل سوى بضعة أشهر ردا على ما اعتبرته القاهرة إهانة لها حيث تم الاحتلال خلال لقاء بين بيجين والسادات فى شرم الشيخ، بينما الحقيقة أن إسرائيل كانت تختبر رد

فعل العالم العربى الغاضب والذى قاطع القاهرة بسبب صلحها مع إسرائيل، وبعد ضرب إسرائيل للمفاعل النووى العراقى وبعد أن ورطت واشنطن بغداد فى صراع الأسود مع إيران الإسلامية. والحق أن تقدير إسرائيل كان دقيقا، إذ لم يصر العالم العربى حينذاك على وقف العدوان الإسرائيلى الذى استمر عدة أشهر رتب شارون خلالها مذابح الفلسطينيين وألف قتلهم وإبادتهم فى المواجهة الأولى ربما لأنه لم يكن معروفا فى مذابح العصابات الصهيونية فأبى إلا أن يضارع بيجين وأقرانه فى فنون الإبادة الفلسطينية التى يبدو أنها من الطقوس الصهيونية المقدسة، وإنما انهمك العالم العربى فى استجداء الغرب لتحقيق شروط شارون وهى تخيير عرفات بين التصفية الشاملة له ولقواته المحاصرة أو رحيلهم من لبنان بضمان سلامتهم. وقد أثبت أنه بذلك أكثر كرما من واشنطن التى ضنت على طالبان بالرحيل وآثرت إفناءهم فى السجون فى الساحات وفى أكبر مذبحة بعد مذابح الهنود الحمر عرفها تاريخ البربرية الأمريكية.

ولابد أن عرفات قد عرف خلال هذه المواجهه المباشرة مع شارون أنه رجل من طراز نادر، وأنه قطب الأقطاب فى تاريخ الحركة الصهيونية، وهو" المنذور للوعد " الصهيونى بإفناء الفلسطينيين (مع اعتذارنا لفاروق شوشة الذى ظن عمروموسى - فى قصيدته العصماء المنشورة بالأهرام يوم ١٥/٤/ ٢٠٠١ - هوالمنذور للوعد العربى، واضعا بذلك الفارس العربى الأعزل فى مواجهة البلدوزر الذى دانت له دنيا الولايات المتحدة بأسرها) ولكن شارون لا يحمل أى اعتقاد بأهمية الحديث مع عرفات والفلسطينيين والعرب عموما، ويرى أن الحديث لابد أن يجرى بين أنداد، وأما بين السادة والعبيد فالأمر هو ما يصدره السيد للعبد، وأن اللغة الوحيدة التى يفهمها عرفات ويجيدها شارون هى الإفناء والإبادة، ولذلك فالحديث عن المفاوضات والسلام وغيرهما من المصطلحات إغفال لهذه الحقائق بل وتمكين لشارون من استخدام هذه العبارات الجميلة فى استكمال برنامج الإبادة.

ويبدو أن شارون قد ندم، كما صرح بالفعل، لأنه أبقى على عرفات ورجاله تقديرا للتوازنات القائمة، فشارون يرى أن مثل هذه الاعتبارات ليست قائمة إلا فى أذهان أصحابها، كما يرى

أن تصفية عرفات التى تأجلت عشرين عاما كان ممكنا أن تنهى الصراع حينئذ، وأن توفر تكلفة الصراع منذ ١٩٨٢. وعندنا أن تصفية عرفات ليست القضية، وإنما القضية الأساسية هى أن شارون اطمأن إلى معادلات حقيقية مفادها أن واشنطن فى صفه، والعالم العربى فى سبات أو جزع أفقده القدرة على البوح، وبذلك صار إذلال عرفات ومنعه من الخروج أو السفر أو تصفيته مسألة لا تهم العالم العربى.

وطبيعى أن يكون شارون فى المواجهة الثانية عام ٢٠٠١ أشد شراسة وأقدر على الحركة لأن واشنطن وتأييدها شارون من مفترضات الموقف الإسرائيلى، والعالم العربى لا يملك سوى الدعوات باللطف لعرفات ورفاقه الذين جلبتهم "أوسلو" من منافيهم إلى هذا الفخ الكبير بعد أن ظنوا أنهم يتعاملون مع دولة، ومع مجتمع دولى له قانونه وضوابطه، وفى وسط عربى يحميهم ماديا وأدبيا من بطش إسرائيل إن تنكرت لوعودها، ونكثت عهودها وقررت النيل من عرفات. ولعلى أزعم أن ماقدمته أوسلو لشارون لم يزد على جمع عرفات ورفاقه فيما سمي أراضى السلطة الوطنية رهينة لمشيئته، ولكن شارون سيصفيه إذا وجد لذلك مقتضى من دواعى السياسة الإسرائيلية.

لقد تغير كل شيء عام ٢٠٠١، فتغير الوسط العربى، كما تحولت الولايات المتحدة من وسيط عام ١٩٨٢ توسط لخروج عرفات من بيروت إلى مساند لكل ما يتخذه شارون من إجراءات حيث فوضته فى تصفية " الإرهاب " الفلسطينى وهى قادرة على استخلاص قرار من مجلس الأمن يسوغ عمله إن أصر العالم العربى على التمسك بالشرعية الدولية فى عصر الهيمنة الأمريكية.

وفى فصل ثالث من التقابل بين شارون وعرفات اتهم شارون عرفات بأنه بن لادن، والمقاومة هى طالبان، ويبدو أن هذا التوصيف يروق لواشنطن التى اعتبرت بالفعل المنظمات الفلسطينية منظمات إرهابية بينما منحت لجيش الإحتلال الإسرائيلى الحق فى إبادة هذا الشعب "المارق"، ما دامت هذه الإبادة ضرورية لإحياء اليهود ودولتهم.

وفى بروكسل مشهد آخر امتداد للمشهد الدرامى فى فلسطين. فضحايا شارون فى صبرا وشاتيلا، وفى انتفاضة الأقصى يقاضونه أمام القضاء البلجيكى، ولكن أنصار شارون، وقد استشعروا ميوعة الخط الفاصل بين القاتل والضحية يحاولون ـ هم أيضا ـ مقاضاة عرفات بسبب جرائم الحرب وإبادة الجنس. ولا أظن أن الفارق بين القاتل شارون والضحية عرفات لا يخفى على أحد خاصة القاضى البلجيكى الذى لا بد أن يمحص طبيعة التهمة المنسوبة لكل منهما. فشارون متهم بحماية ميلشيات لبنانية لارتكاب مجازر صبرا وشاتيلا وسبق للجنة التحقيق الإسرائيلية أن حملته المسئولية المباشرة فى هذه المذابح، ثم أنه أمر جيشه بتنفيذ سياسة حكومته الرسمية فى الاغتيال والتدمير والإبادة وهدم المنازل وكل صور التنكيل والقتل. أما التهمة الموجهة إلى عرفات أمام القضاء البلجيكى فهى التحريض على قتل الإسرائيليين الأبرياء المدنيين المنصرفين إلى أعمالهم وأحوالهم، والتآمر مع قادة المقاومة " الإرهابية " على انطلاق " الأعمال الإرهابية " وأعمال إبادة الجنس.

ولو أنصف القضاء ـ بالمنطق الإسرائيلى ـ لكافأ عرفات لأنه يتعاون قدر المستطاع مع إسرائيل فى اعتقال الذين يدافعون عن حياة الفلسطينيين المعتدى دوما عليهم، وحفظ كرامة الشعب، وكأنه وإسرائيل يريدان أن يقوم الجيش والمستعمرون بإفناء الشعب الفلسطينى دون أن يحرك ساكنا ودون أن يئن، وعليه أن يودع شهداءه بصمت المؤمن وسمت المقهور، كما أن عرفات يدين أيضا أفراد المقاومة " البغاة " الذين وجدوا الموت شهادة أفضل من حياة القهر والذل وتآمر العالم كله عليهم رغم أن الأعمال الفدائية هى الوجه الوحيد المشرق لهذه الأمة المحتضرة. فهل هزم داوود جالوت؟ إننى أنزه نبى الله داوود عن أن أنزله منزلة شارون كما أن عرفات صار أضعف من أن يتصل اسمه بجالوت، لا لأن الرجل خان الأمانة، ولكن لأن الزمن خدعه ووجد نفسه وحيدا وأريده أن يموت بطلا وأن يختم هذا الفصل من حياة أمته بالشهادة، فليعلن توحده مع المقاومة أوفليعلن استقالته، قبل أن ينزلق إلى قوائم الذين خانوا دماء الرفاق وأمانة النضال ونصرة الحق مهما التمع بريق الباطل وذل الحرص على الحياة البائسة أعناق الخراف المرتعشة.

١٢ـ تحديات العام الثانى لانتفاضة الأقصى

لا يجوز أن تمر الذكرى الأولى لانتفاضة الأقصى يوم ٢٨ سبتمبر دون أن أنضم إلى الملايين فى المنطقة العربية وفى العالم الإسلامى فى تحيتها والترحم على شهدائها البررة، ولكننى قدرت أن كل ما يمكن قوله فيها قد قيل وهذا يدل على الاهتمام الثقافى الملحوظ بها فى الفكر والإعلام فى العالم العربى وأنها فرضت نفسها كحقيقة مشرقة فى تاريخنا المعاصر.

ورغم ذلك حاولت أن أقدم شيئا من المساندة الخجلى لها، فهى أكبر من كل التمنيات وأرفع من كل رجاء بضرورة مساندتها ماديا ومعنويا، ولا جدوى من جلد الذات العربية على نزع الانتفاضة كل يوم، بل الأحرى أن نتجاوز ذلك إلى ما ينفع ويفيد فى استمرار الإنتفاضة وعافيتها. وقد أسعدنى حقا أن أرى كل قطاعات الشعب الفلسطينى فى الداخل والخارج ومثقفيه رغم ظروفهم النادرة فى قسوتها يجمعون على الصمود مهما طال الزمن فى وحدة متراصة ولا يهمنا إن حصلت إحدى الجماعات المقاتلة على تأييد كاسح أومتهافت من الرأى العام، وإنما يهمنا أن الجميع فى خندق واحد من أجل التحرير ضد أكبر حملة إبادة فى التاريخ لشعب أصر على أن يدفن فى أرضه، وأن تطل شواهد قبوره إعلانا على صموده وإستعلائه على القوة والغصب.

كما لا يهم فى صدد تقويم الموقف أن تتفاوت مناهج الطرق الفلسطنية وآمالهم بين راغب فى تحرير الأرض المحتلة، وطامع فى تحرير الأرض المغتصبة، ولابد أن يتجاور المنهجان. فالمنهج الأول يتبناه السياسيون والرسميون الذين قبلوا بوجود إسرائيل كحد أدنى ورفضوا احتلالها وتفاوضوا لإجلائها، وهم يصرون على أن هدف الانتفاضة هو الجلاء أى إزالة الاحتلال. وقد عبر عن ذلك تعبيرا بليغا د. نبيل شعث فى لقاء مع هيئة الإذاعة البريطانية يوم ٢٠٠١/٩/٢٨ فى ذكرى الانتفاضة .وعنده أن زوال احتلال ١٩٦٧ وقيام إسرائيل وعودة اللاجئين وإعلان الدولة هونهاية آمال الثورة الفلسطنية .

وعلى الجانب الآخر تطالب الجماعات الإسلامية والوطنية الأخرى بتحرير فلسطين من البحر إلى النهر أى عدم التمييز بين احتلال ١٩٦٧ وقيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ففى الحالين تم اغتصاب الأرض التى قامت عليها إسرائيل، ثم أكملت هذا الغصب ومدته إلى بقية فلسطين، فصور الغصب واحدة، مهما تعددت وتعاقبت مراحله. بعبارة أخرى يجب أن يعمل معا من يفضل العمل فى إطار أوسلو، جنبا إلى جنب من ظل فى إطار الميثاق الوطنى الفلسطينى قبل تعديله .

ولا شك أن عاما من النضال الفلسطينى مناسبة للمراجعة والتقويم وقد أسهم الكتاب فى ذلك إسهاما واضحا .

ولعل السؤال الذى يجب طرحه والإلحاح عليه بعد التسليم بضرورة استمرار الانتفاضة كخيار فلسطينى، يتعلق بكيفية تحسين فرص عمل الانتفاضة وتفادى ثغراتها وتصحيح أخطائها، وعلى الجانب الآخر كيف يمكن استثمار الانتفاضة سياسيا للوصول فى النهاية إلى الاستقلال والتحرير .

سبق أن عالجت جانبا من هذا السؤال فى موضوع حول مصير الانتفاضة فى صراع الأقدار والإرادات وخلصت إلى أن استمرار الانتفاضة ورغم كل شئ – ضرورى، ولكن الأهم منه مساندة الانتفاضة بشكل عملى. ولا أريد أن أقلل من قيمة التحليلات السياسية والتقريرات لأثر الأحداث الخارجية على الانتفاضة، ولكننى أعتقد أن الطابع العام للانتفاضة قد جعلها شأنا عاما يصح لمن يريد أن يدلى بدلوه فى شأنها، ولكن هذه العناية يجب أن تترجم إلى عمل محدد واضح ومفيد .

فماذا يفيد الانتفاضة إن قلنا إن أحداث الثلاثاء ١١من سبتمبر فى الولايات المتحدة لن تؤثر على الانتفاضة أوإنها ستمثل تحديا لها ونحن جميعا نعلم أنه للمرة الألف تقفز إسرائيل فوق كل الأكتاف لكى تجعل الحملة الدولية ضد الإرهاب فى خدمة المصالح الإسرائيلية، وأن تنال

هذه الحملة من العرب والمسلمين ومن الفلسطلنيين من باب أولى مادام شارون يـردد كـل يـوم أن عرفات هو بن لادن إسرائيل، أي رأس الإرهاب ومصدر الفتن .

صحيح أن الربط بين عرفات وبن لادن فى هذه الظـروف فـى الذهـن الغربـى يسئ للجـهاد الفلسطينى من ناحية أنه يظهر مدى الحنق والغل اللذين يشعر بهما شارون تجاه عرفـات مثلما تشعر بهما تجاه بن لادن الولايات المتحدة، وقد يؤدى هذا الربط إلى أن تجعـل الحملـة الدوليـة ضمن خطة عملها القبض على بن لادن وعرفات بنفس القائمة. وقد رأينا فعلا كيف أن إسـرائيل تطلب من السلطة الفلسطينية تسليم بعض الزعامات ممـن تعتـبرهم محرضـين، وهـم فـى الحـق يقودون نضالا مشروعا ضد احتلال غاشم .

إن التحديات التى تواجه الانتفاضة خلال عامها الثانى يمكن تلخيصها فيما يلى:

أولا : أن نجاح إسرائيل فى تغذية الحملـة الأمريكيـة ضـد الإرهـاب وإدراج أسمـاء الزعمـاء الفلسطينيين سوف يؤثر عمليا ومعنويا على زخم الانتفاضة، بل وربما يجعـل الانتفاضـة نفسـها أحد أهداف هذا التحالف مثلما أن قضايا إسلامية أخرى معرضـة لنفس المصير. ولذلـك يتعـين على العالم العربـى أن يؤكـد قـولا وفعـلا علـى التميـيز بـين الإرهـاب الإسـرائيلى الـذى يجـب محاصرته واقتلاعه، وبين نضال الفصائل والأفراد فى فلسـطين ضـد الإبـادة. وقـد كنـت أرى – ولاأزال – أن انتهاج موقف عربى حازم تجاه إسرائيل فى كل المحـافل هوالكفيـل بردعـها وأن سياسة اللين والتهدئة فى مواجهة القتل والتدمـير تغـري إسـرائيل بالعـالم العربـى، وكـان أولى بالعالم العربى أن يقدم الدعم الحقيقى للانتفاضة مادام مقتنعا بشرعية عملها وحقـها فـى الدفـاع عن الحقوق الفلسطينية ومقاومة الاحتلال الذى يبيد الزرع والنسل ويساوم لإطالة أمد البقـاء. ولا شك أن استمرار الانتفاضة ومساندتها فى ظل المشروعية الدولية والعربيـة يمثـل ردا عربيـا علـى استهانة إسرائيل بالعالم العربى وضغطا فعالا يرغمها على إعادة النظر فى جدوى السلام .

ثانيا : لا تـزال اسـتطلاعات الـرأي فـى إسـرائيل تظـهر أن الأغلبيـة تؤيـد اسـتمرار القمـع الإسرائيلى ولذلك لابد من المراهنة على المواطن الإسرائيلى فى المرحلة المقبلة .

صحيح أن الرهان عليه داخل إسرائيل وفى المستوطنات اتخذ شكلا واحدا وهو مد المقاومة لتشمله ضمن أهدافها مما أشاع الرعب فى قلبه، ولكننا نعتقد أن التركيز الأهم يجب أن يتجه نحو المستوطن الذى يقيم بغير حق فى الأراضى الفلسطينية ويشترك فى البطش بالفلسطينيين تحت حماية الجيش. وعند هذا الحد يجب على الدبلوماسية العربية والإعلام العربى أن يتجه إلى المواطن الإسرائيلى وإلى العالم لإقناعه بأن الاستعمار الصهيونى له طبيعة خاصة تتمثل فى أن المستعمر تاريخيا جاء من وراء البحار ثم ترك البلاد لأصحابها، أما إسرائيل فقد جاء شعبها من وراء البحار وأقاموا دولة على أرض غيرهم، واحتلوا بقية هذه الأرض ويريدون قهر أهلها على الإذلال والطرد. ولابد من أن تتبنى الدبلوماسية العربية فى شجاعة أنه آن الأوان لأن تتفاوض إسرائيل مع العرب والفلسطنيين على موضوع واحد وهوترتيبات الجلاء، وضرورة إيضاح أن السلام ومحادثاته له موضوع آخر وتوقيت لاحق. فإذا كان الصراع غير تقليدى، فلابد من الخروج على القواعد التقليدية التى وضعتها إسرائيل فيها والدوران فى رحابها .

ثالثا : ضرورة التركيز على الخط الذى بدأه الرئيس مبارك وأكده ملك الأردن واعتباره خطا عربيا عاما وهو أن مكافحة الإرهاب الدولى تتطلب تمهيدا ضروريا وهو التسوية العادلة للقضية الفلسطينية، لأن استمرار ملاحم الإفناء فى الوقت الذى تتسارع فيه جهود مكافحة الإرهاب سوف تطرح الإرهاب الإسرائيلى كأولوية متقدمة على جدول الجهود الدولية لمكافحة الإرهاب .

وأخيرا يجب حماية الانتفاضة من عوامل إضعافها، وتقديم كل ما يضمن اشتداد جذوتها، والترفق عند النظر إليها وتقييم ظروفها.

١٣ـ مرة أخيرة :

وها هي أصول المسائل !!

الصديق د. عبد المنعم سعيد يتحفنا عادة بعموده الأسبوعي بالأهرام وقد ألح في مقاله يوم ٦ /٥/ ٢٠٠٢ على ضرورة العودة إلى أصول المسائل لكنه لم يحدد لنا هذه الأصول واكتفى بالإشارة إلى أن المظاهرات حتى لوكانت مليونية (أي تضم الملايين) فإنها لن تحل المشكلة ولن تضغط على إسرائيل وأمريكا ولن تؤثر على مواقفهما، بل إن هذه المظاهرات تراها واشنطن دليلا على العداء لها في العالم العربي فتزداد انحيازا إلى إسرائيل. كذلك اعتبر د. عبد المنعم سعيد أن المطالبة باستخدام البترول سلاحا في المعركة وغيره من أسلحة المقاطعة تضر أكثر مما تنفع، وأنه ما دامت القدرات الذاتية العربية محدودة فلا بد من العودة إلى " أصول المسألة ". وأرجو أن يسهم المثقفون جميعا في إثراء هذه القضية والتركيز عليها دون أن يكون القصد فتح معارك ثقافية أوتفجير خلافات سياسية ، فنحن جميعا نستهدف المصلحة العليا ونشعر بالمهانة وقهر العاجز .

فمن ناحية ، أعتقد أن حجم المظاهرة وجدية الشعارات التي نرفعها كما يحدث في العالم العربي وأوربا والولايات المتحدة لا تعكس فقط ضيقا واضحا من العجز العربي أمام غطرسة القوة والظلم من جانب إسرائيل والولايات المتحدة ، بل إنها تعبر أيضا عن حقيقة جديدة وهي أن الشعوب تقف وراء توحد العالم العربي على مواقف وسياسات تتصدى لإسرائيل والولايات المتحدة، كما تعلن أن فلسطين وما يحدث فيها هوجزء من المعاناة العربية وأن الأمة العربية لا تزال تنبض وستظل. وقد سألني ـ خلال مراحل المظاهرات العارمة ـ مراسل صوت أمريكا عن جدوى هذه المظاهرات إزاء جمود النظم العربية ، فذكرته بأن للمظاهرات في التحليل السياسي مدلولا متباينا حسب تقاليد المنطقة التي يتم فيها التظاهر ، فحق التظاهر في التقاليد الديموقراطية مكفول بالقانون وهدفه إطلاع الحكومة على موقف الشارع الذي لا بد من أن يؤخذ

في الحسبان على أي نحو، وليس من وظائف المظاهرات أن يحل المتظاهرون محل الحكومة في اتخاذ القرار.

أما في العالم العربي فالتظاهر يعني ظهور الشعب دفاعا عن قضية وهو ظهور يربك الحكومات أمنيا وسياسيا ويهدد بأن يكون الشعب طرفا في القرار وسلطة لمتابعته ومراقبته. ولكن التظاهر ضد إسرائيل والولايات المتحدة هذه المرة لا يجب أن يفهم فهما خاطئا على أنه يعني اكتساح الجماهير للحكام في حركة شعبية كما يحدث في دول أخرى احتج فيها الشارع على النظام نفسه أوعلى فساد رموزه الكبرى، ولكن التظاهر يعني أن الشارع مستعد للتعاون في تنفيذ أي قرار تتخذه الحكومة للحفاظ على كرامة الأمة وردع إسرائيل والرد على الولايات المتحدة، وإنقاذ فلسطين ، فالشارع بركان والحكومة عليها أن تترجم البركان إلى عمل تنفيذي وفق الأصول المعروفة في السياسات العملية، وليس من حق أحد أن يستغل نقاء القصد وتدفق الوطنية في الشارع ، أوأن يعمل على احتواء مشاعره وتفريغها، أويعمل على الإساءة إليها أوالحكم على فاعليتها ومحتواها ، أو أن يقمع المتظاهرين بحجة الحفاظ على الأمن. ولذلك أحبذ إنشاء إدارة حكومية لتنظيم المظاهرات بل وإخراجها كلما تعلق الأمر بقضية وطنية، لأن المظاهرات تصبح سندا للحاكم وليس قيدا عليه في مواجهة الآخر الذي يعلم أن هذا الحاكم يفعل ما يشاء دون رقابة من شعبه، ولذلك جنى الحاكم والوطن معا الحصاد المر الذي نتجرعه جميعا كل يوم .

وأما المقاطعة فهي سلاح فعال من الحاكم والمحكوم إن درست نتائجها، وهي على كل حال مشروعة شعبيا ورسميا من زاوية القانون الدولي، **وهذا يقودنا إلى أصول المسألة التي يعلمها الجميع وندعوهم إلى تدبر الحلول لها :**

<u>الأصل الأول</u> : أن إسرائيل وأمريكا تحتكمان إلى القوة العسكرية الخالصة في تحقيق الإذلال وترتيب الأوضاع. وإذا كانت واشنطن تعتبر شارون رجل السلام وشعبه دعاة سلام وحضارة والدليل مشاهد الإبادة والدمار في فلسطين وقلب الحقائق في المنطقة، فمعنى ذلك أن واشنطن تريد أن تستمر إسرائيل في هذه المهمة " الحضارية " حتى ينعم بها أيضا العرب

الآخرون. ورغم أن أمريكا تعلم حجم مصالحها في المنطقة ، فإنها تعلن مساندتها للبطش الصهيوني أيا كانت دوافعها في ذلك ، وهي مطمئنة إلى أن الشارع العربي يغلي ثم يفتر وأن النظم العربية محصنة ولا تتمتع بأي درجة من درجات المرونة للتفاعل مع الشارع ، وأن مصالح أمريكا بالتالي مضمونة تماما ، وأن الحكام العرب يفرقون تفريقا " حكيما " بين المصالح الأمريكية في المنطقة التي تقابلها مصالح عربية عليا من قبل الولايات المتحدة ، وبين حرية واشنطن في رسم سياساتها في المنطقة واحترام حقها " النبيل " في الاختلاف مع العرب لأن اختلاف "الأحبة" لا يفسد الود بينهم بل قد يكسبه وهجا واشتعالا ، وما دامت الشعوب خارج دائرة النظام السياسي ، فهي لا ذاكرة لها ولا أنياب. وقد أدركت واشنطن الآن فقط أهم حسنات عدم الإلحاح على إنشاء الديموقراطية في العالم العربي ، حتى تأمن ترجمة مشاعر الشارع إلى سياسات يضعها الممثلون الحقيقيون لهذا الشارع مناهضة للمصالح والسياسات الأمريكية .

الأصل الثاني : أن إسرائيل وأمريكا تعلمان علم اليقين أن المجتمع الدولي مستعد للسكوت الراضي عن أية ترتيبات حالية ولذلك فاللحظة تاريخية ، أي لن تعوض ولا بد من دفن القضية الفلسطينية مع ترك الفرصة لبعض المنظرين في العالم العربي لتعداد مناقب السياسة الأمريكية وأهمها الحديث المتكرر عن دولة فلسطينية وهو ما لم يكن يحلم به العرب والفلسطينيون في أسعد أحلامهم ، بل إن الاعتراف بشعب فلسطين — في قولهم — ظل منكورا حتى تم ذلك بعد أوسلو ، ولتنشيط الذاكرة أقول إن قرار التقسيم الذي دفنته إسرائيل ووافق على ذلك العرب كان يسمح بإقامة دولتين فيهما شعبان" عبري" وعربي فلسطيني ، فالقرارالذي قامت بموجبه إسرائيل هونفسه اعترف بوجود الشعب الفلسطيني وليس مصدر الاعتراف هوإسرائيل أوأمريكا أوالأمم المتحدة.

الأصل الثالث : أن القدرات العربية فائقة ، ففي العالم العربي حوالي ٣٥٠ مليونا ثاروا جميعا لكرامتهم وهو ما تكشف عنه البرامج الإعلامية اليومية ومظاهر التضامن الفائقة في مصر والعالم العربي ، وبه ثروات بترولية ومعدنية هائلة وله أهمية استراتيجية مؤكدة ، وممرات مائية

وثروات زراعية ورصيد مائي معتبر ومساحة متصلة تزيد على مساحة الولايات المتحدة وإسرائيل معا. كما أن العالم العربي ينفق على الإعلام والدعاية والجيوش بلايين الدولارات. وما لم تستخدم هذه القدرات بحيث تحل مشاكل البلاد العربية وتبني لها مصادر القوة المتنوعة ، فلا أمل في مجرد ضمان الوجود العربي على الخريطة الجغرافية وهي أضعف أنواع الخرائط، بل نخشى أن يظهر على الخريطة الجيولوجية للمنطقة .

الأصل الرابع : أن إدانة الشعب الفلسطيني كله بالإرهاب ، وإسباغ صفة السلام والخير على الشعب الإسرائيلي وزعاماته ، ثم مطالبة الحكومات العربية بالتعاون مع إسرائيل لمكافحة الإرهاب الفلسطيني وتقطيع أوصاله حتى لا تقع هذه الحكومات تحت طائلة القانون الأمريكي الصادر من مجلس الأمن رقم ١٣٧٧ (قرار إجراءات مناهضة الإرهاب) واعتبار واشنطن جميع التبرعات لضحايا العدوان الإسرائيلي تمويلا للإرهاب ويجب وقفه ، كل هذا يعني أن العالم العربي كله في قارب واحد قاعدته المتقدمة فلسطين وبقية ساحاته هي ساحات الصراع والتأديب في الفترة المقبلة، وهو ما يعني أن المصير العربي كله عرضة للخطر وأن التوحد العربي لمواجهته لم يعد ترفا سياسيا أومطلبا عاطفيا أوشعارا لتحقيق المكاسب السياسية والإقليمية على حساب الصالح العربي العام .

فإذا كان لإسرائيل وأمريكا أجندة واحدة اليوم فذلك خطأ العالم العربي كله ، ولا بد من تصحيح هذا الخلل الفادح بدءا بأن يحسن استخدام قدراته، ولا بد أن يقارن بين نفسه وبين إسرائيل التي لا تملك أية مقومات طبيعية أوثروات معدنية أومائية ، مع ذلك فهي أقوى دول المنطقة عسكريا وأكثرها رخاء وارتفاعا في متوسط دخل الفرد، ثم إنها الحالة الديموقراطية الوحيدة. وبهذه المناسبة، فقد فهم البعض خطأ هذه الحقيقة فهاجموا الديموقراطية الإسرائيلية واستدلوا على فشلها بالتمييز داخل إسرائيل ضد الأقلية العربية. والحق أن لدى إسرائيل ديموقراطية تناسب طابع الدولة التي قامت على الدين المعتبر عندهم عرقا ، فهي دولة اليهود وتعادي كل من دونهم، سمها ما شئت دولة عنصرية، فإن قوتها السياسية والدبلوماسية

وحيويتها وقوتها الاقتصادية والإرهاب الذي تمارسه الحركة الصهيونية يجعلها بمنأى عن النقد والمحاسبة.

الأصل الخامس : لا بد من الإجابة عن السؤال المحوري خلال الخمسين عاما الماضية لماذا ارتفع نجم إسرائيل وتمكنت من هزيمة الجيوش العربية التي تصدت لها وغيرت مسيرة الصراع بالشكل الذي تريده وأرغمت الحكومات العربية على القبول بما تريد وأجهضت مشروع القومية العربية الذي كان شعارا وأساسا لشرعية بعض النظم العربية ، وتسببت في تسويغ الكثير من التطورات داخل العالم العربي مثل قبول النظم العسكرية ، وتأجيل الديموقراطية ، وبددت الموارد العربية ، وانتهى الأمر إلى هذه الصورة التي ترى ؟ وأين نقطة البداية ، وما هو الضمان من أن ما يحدث ليس أكثر من فصل واحد إزاء مسيرة المشروع الصهيوني التي أمنت له إسرائيل كل شروط النصر ؟

فالأصل الخامس إذا : هوضرورة الالتفات إلى إدارة الصراع مع إسرائيل من خلال القدرات العقلية لا البيروقراطية للعالم العربي ، ولا بد من إنشاء مركز عربي لإدارة الصراع بديلا عن الجامعة العربية التي تكلف دون عائد سياسي أوإعلامي مناسب، بل إن فشلها ألحق بعجز الحكومات العربية .

١٤ـ الهولوكوست الفلسطيني واليهودي

مقاربة النازية بالشارونية

لعل مشاهد الإبادة التي مارسها الجيش الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية تستفز الذاكرة وتستدعي إليها الفصول الشبيهة في التاريخ، وأقربها ما حل باليهود أنفسهم أثناء الحرب العالمية الثانية على يد النظام النازي. ونقطة البداية في هذا التحليل هي التشابه الأولي بين طبيعة الإبادة الفلسطينية والإبادة اليهودية، فلم تكن أفران الغاز وغيرها من صور الإبادة اليهودية شكلا من أشكال معاقبة اليهود أوتأديبهم وإنما كانت إبادة للعرق نفسه وتخلصا منه بهذه الطرق القاسية .

وفيما عدا هذا الشبه الوحيد الذي تتفق فيه طبيعة إبادة النازية لليهود مع طبيعة إبادة اليهود للفلسطينيين، تباين الهولوكوست، الذي حل بالفلسطينيين عن ذلك الذي حل باليهود. وقد يفهم إيراد هذين النوعين من الهولوكوست على أن اليهود يقتصون من الفلسطينيين لاشتراكهم في إبادتهم مع النازية، ولكن الحقيقة أن الفلسطينيين هم ضحية أخرى للهولوكوست اليهودي، فضلا عن أنهم استقلوا بهولوكوست خاص، أظهرت فيه إسرائيل فنونا مبتكرة من الإبادة الوحشية،والممارسات التي تتضامن إلى جانبها ممارسات في عصور البربرية الأولى، عندما كانت البشرية تعبر العتبات الأولى في طفولتها قبل أن تدلف إلى مدارج المدنية والحضارة .

ورغم ما يثيره الحديث من خواطر سوداء وأحقاد منكرة ترتد بالإنسان إلى مشاعر البداوة والرغبة في الانتقام، فإن مشاهد الإبادة تثير النقطة الأولى الفارقة بين الهولوكوست اليهودي والفلسطيني. فالأول لم يره أحد، ولم يعرف حجمه وفنونه وعدد ضحاياه، وليس لدينا سوى الروايات اليهودية التي أسدلت ستارا من القدسية حول المعلومات الخاصة به، حتى أصبحت هذه القدسية قيدا صارما على كل العقول الأوربية التي أرادت أن تستجلي الحقيقة بشأنها، وصدرت قوانين في جميع أنحاء أوربا تعاقب كل من يدعي حرية البحث العلمي لكي يكشف

عن الحقيقة المبهمة فِي هَذَا الموضوع. وطابور ضحايا هَذِهِ القوانين يشهد بِـأَنْ كـف الجميـع عَـنْ مراجعة ملف هَذَا الموضوع هِيَ أولى معارك الصهيونية لأَنَّهُ ميدان بنت عَلَيْهِ الحركـة الصهيونيـة الكثير مِنَ البرامج فاستدرت العطف عَلَى اليهود حينًا، واستخلصت بالإرهـاب تعويضـات عَـنْ ضحايـا موهومـين أحيانًـا، وقَـد آن لَنَـا أنْ نفضـح هَـذَا الكـهنوت وأنْ نكشـف عَـنْ أنَّ هَـذَا الهولوكوست لَمْ يَكُنْ سِوَى خدعة كبرى وأداة لإرهاب قلـوب الجميـع، وإرهـاب عاطفتـهم فِـي استجلاب رخيص لأسلاب ومكاسب لِهَذِهِ الفئة العصابة الَّتِي تَدَّعِي أنَّهَا دولة، كَمَا تَدَّعِي أنَّـهَا ولي الدم لِكُلِّ الضحايا والكمنولث الصهيوني لِكُلِّ اليهود ووكيل كُلّ اليـهود فِـي كُـلّ القضايـا، الَّتِي بدأت وانتَهَت قبل قيامها، بزعم أنَّ إسرائيل كَـانَت موجـودة تاريخيًّـا جـوازًا، ثُـمَّ أعيـد تأسيسها عِنْدَمَا سنحت الظروف .

والفوارق بَيْنَ الهولوكوست اليهودي والفلسطيني تتسع ويضيـق المقـام عَـنْ إدراكـها، ولَكِنَّنَـا نشدد هُنَا عَلَى أهمـها راجـين أنْ تَكُـون هَـذِهِ لفتـة تلقـي مَـا تستحقه مِـنْ عنايـة فِـي الإعـلام والدبلوماسية العربية، لِكَي نفضح دَعَاوَى السلا سامية الَّتِي سلطتها الحركـة الصهيونيـة عَلَـى رقاب الجميع طوال نصف القرن الماضي:

الفـارق الأول يتعلـق بالطبيعـة القانونيـة لوضـع اليـهود فِـي ألمانيـا، ووضـع الفلسـطينيين، وأسباب مَا حَلَّ بِكُلٍّ مِنْهُم ودوافعه. فاليهود جزء مِـنَ الشـعب الألمـاني وإحـدى أقلياتـه، ومِـنَ المتصور أنْ تقوم حكومة كَمَـا فعلـت النازيـة باضطـهاد عرق بذاتـه لاعتبـارات عنصريـة تتعلـق بتصورها بتفوق العرق الآري الألماني عَلَـى غيره، أو لاعتبـارات سياسـية تتصـل بالمنافسـة بَيْـنَ الأعراق .

ومِنَ الواضح أنَّ شعور الألمان الآريين بتميزهم دفعهم إِلَى نفـض غبـار الـذل عنـهم والسـيطرة عَلَى غيرهم بدافع وازع شوفيني أذكته مظاهر الإهانة الَّتِي لحقت بِهَذَا العـرق فِـي فرسـاي بَعْـدَ الحرب العالمية الأولى، ولَكِن لَيْسَ مِنَ الواضح أنْ يلجأ العرق المتميز إِلَى إبـادة الأعـراق الأدنـى، ومِنْ بَيْنِهَا العرق اليهودي. يترتب عَلَى ذَلِـك أنَّ النازيـة لا يُمْكِـن أنْ تَكُـون قَـد أبـادت اليـهود لنزعة عنصرية كَمَا أشاعت الحركة الصهيونية، ودفعت غيرها ومِنْهُم العرب إِلَى إشاعته .

والْمُلاحَظ أنَّ أعمال الإبادة اليهودية لَمْ تجر إلاَّ أثناء الحرب العالمية الثانية، فلو كَانَ الارتباط حتمًا بَيْنَ الفلسفة العنصرية النازية وبَيْنَ احتقار اليهود لبدأت تِلْكَ الإبادة مِنْ تولي النازية الحكم فِي شتاء ١٩٣٣ م، وهَذَا يدفعنا إلَى الافتراض بِأَنَّ الإبادة خلال الحرب ترجع إلَى سبب يتعلق بالحرب، وقَد يَكُون السبب هُو تآمر اليهود مَعَ الحلفاء ضد الألمان ؛ مِمَّا يشكل جريمة خيانة عظمي أثناء الحرب، عقوبتها الإعدام، ولَكِن النازية بالغت فِي صور إعدامهم وقَرَّرَت الإعدام الجماعي للعرق بأكمله بِهَذِهِ القسوة الَّتِي حدثتنا عَنْهَا الروايات الصهيونية، ولَو قَدر للألمان أنْ يقولوا كلمتهم بحرية لاتَّضحت الحقيقة حول هَذَا اللغز المبهم .

أمَّا فِي حالة الشعب الفلسطيني، فَإِنَّهُ يقيم فِي أرضه واضطر قهرًا إلَى أنْ يترك ٧٨ ٪ مِنْ مساحتها لإسرائيل، ثُمَّ يستجدي ٢٢ ٪ فقط مِنْ مساحتها. وعِنْدَمَا طالب إسرائيل بالانسحاب، اشترطت أنْ يَتِمّ ذَلِك فِي إطار عملية السلام ؛ حَتَّى تعكس التسوية ثقل إسرائيل، بالمقارنة بضعف الطرف الفلسطيني، وكَانَ طبيعيًّا أنْ تتعثر عملية السلام ؛ لأنَّ إسرائيل لا تنوي حقيقة أنْ تعيد الأرض إلَى أصحابها، ولَمَّا استبد بالشعب الفلسطيني اليأس مِنَ التحرر، قام بانتفاضته رَدًّا عَلَى تدنيس شارون المسجد الأقصى، ورفضًا لطريقة التسوية السياسية الموهومة. فَكَانَ جزاؤه إعادة إسرائيل احتلال الأراضي الَّتِي دفعت السلطة الفلسطينية مقابل الانسحاب مِنْهَا، ووفرت لإسرائيل الأمن عَلَى حساب حرية الشعب الفلسطيني، كَمَا كَانَ جزاء مقاومة إعادة الاحتلال هُو برنامج الإبادة الشامل الَّذِي تُصِرُّ إسرائيل عَلَى تنفيذه لإسكات الفلسطينيين إلَى الأبد .

وإذَا كَانَ الألمان قَد أبادوا بأفران الغاز جزءًا مِنَ الشعب الألماني بسبب ارتكاب هَذَه الخيانة العظمى. فسبب الإبادة هُو تجاسر الشعب الفلسطيني عَلَى المطالبة باستقلاله وإنهاء الإحتلال .

ومِنْ ناحية ثالثة : إذَا كَانَت الإبادة الألمانية لليهود قائمة عَلَى أنَّهُم عرق يجب إفناؤه بسبب ممارساته وخيانته، فَإِنَّ الشعب الفلسطيني يُبَاد بسبب مطالبته بحقه المشروع فِي الحرية والحياة. رغم أنَّ الإبادة فِي الحالتين جريمة مِنْ جرائم النظام العام الدَوْلي ، ومع أنَّ القانون الألماني هو الَّذِي يحكم العلاقة بَيْنَ الحكومة والطائفة اليهودية، بَيْنَمَا يحكم القانون الدَوْلي العلاقة بَيْنَ الفلسطينيين والحكومة الإسرائيلية .

ومِنْ ناحية رابعة : فَإِنَّ اليهود قَد تمكنوا مِنْ قيادة حركة دوليَّة لمحاكمة المجرمين الألمان، وإعدامهم فِي ساحات المحاكم، الَّتِي أنشأها المنتصرون، ومقابل ذَلِك فَإِنَّ مُحَاكَمَة المجرمين الإسرائيليين وفقًا لنفس القانون الَّذِي كَانَ لليهود فضل إنشائه مُنْذُ عام ١٩٤٥ م. يتطلب أيْضًا انتصار الشعب الفلسطيني ؛ لأنَّ العدالة الدَوْلية الناجمة عَن الهزيمة هِيَ عدالة الضعف الَّتِي لا تقوى عَلَى إنفاذ الحق. ورغم ذَلِك فَإِنَّهُ لا بُدَّ مِنْ إنهاض الضمير العالمي والإلحاح عَلَى أنْ يتم تشكيل وجدانه مِنْ خلال صور الإبادة المبتكرة، الَّتِي تفخر الحكومة الإسرائيلية بِأَنَّهَا قامت بِهَا بأسلحة أمريكية، وقلب صهيوني طُبع عَلَى الغلظة والإبادة، إزاء شعب استأنسه زعماؤه إلَى سلام موهوم وجردوه مِنَ أسلحة المقاومة .

ومِنْ ناحية خامسة : فَإِنَّ ألمانيا كلها قَد ارتهن مصيرها بِهَذِهِ الجرائم الَّتِي ارتكبتها حكومتها. فَتَمَّ احتلالها وانتزاع الطابع النازي مِنْ شعبها وإشراف الغرب عَلَى مسيرتها حَتَّى يضمن عدم تكرار هَذِهِ الجرائم، كَمَا لحق بألمانيا ذل أعظم مِنْ ذل فرساي، وهُوَمَا سيدفع ألمانيا يومًا إلَى الانتقام مِنَ اليهود، مِثْلَمَا انتقمت مِنَ الفرنسيين، الَّذِينَ تسببوا فِي إذلالها .

بَلْ إنَّ إسرائيل قَد طافت بِهَذِهِ المأساة لأكثر مِنْ نصف قرن تثير بِهَا مشاعر العطف أحيانًا، وعقدة الذنب فِي معظم الأحايين، وتستدر بالبلطجة والسعي الحثيث المال والعطف والدَّعْم السياسي، وتمكنت بِذَلِك مِنْ أنْ تفرض عَلَى أُورُبَّا كلها قيدًا عَلَى حرية البحث العلمي فِيهَا، خاصة فِيمَا تعلق بتاريخ الهولوكوست اليهودي ؛ حَتَّى لا ينكشف المستور وتظهر الخديعة الْكُبْرَى، الَّتِي قبل الغرب أنْ تنطلي عَلَيْهِ فسن تشريعات تعتبر كُلَّ مَا يتعلق بالهولوكوست محظورات تحيطها الْقَدَاسَة، وتغلفها الحساسية، وتقف لحمايتها أنواع قاسية مِنَ العقوبات. وفي المقابل فَإِنَّ الفلسطينيين لا يملكون مجرد تصحيح الموقف، الَّذِي فرضته واشنطن عَلَى العالم كله، وهُوأنَّ نقطة البداية هِيَ المجرم الانتحاري الفلسطيني عَلَى المدنيين الإسرائيليين، ومِنْ ثَمَّ يَكُون لإسرائيل حَقّ الدفاع الشرعي عَنْ مواطنيها، ويمتد هَذَا الحق فِي نظر واشنطن عِنْدَمَا يتعلق الأمر بإسرائيل،فلا يكترث لفظاعة الإجراء، أو همجية التصرفات الإسرائيلية،مَا دام ذَلِك يشفي غليل إسرائيل حَتَّى الانتقام،ويؤمن الدَّوْلَة العبرية ومواطنيها إلَى الأبد ضد العرق الفلسطيني .

ثم تطالب الولايات المتحدة العالم بالتأكيد على أن المقاومة الفلسطينية هي عدوان وإرهاب، يجب مقاومته، ويجب مساندة الجهد الإسرائيلي في هذه المقاومة، على أساس أن هذه القوات قد أتمت مهمتها في إطار أعمدة الدفاع، ويترتب على ذلك أن قرارات مجلس الأمن تكرس معنى الإرهاب الفلسطيني، ولا تتحدث إلا عن وقف إطلاق النار، أوانسحاب القوات الإسرائيلية الشرعي، ولا يوجد ما يبرر بقائها في الأراضي الفلسطينية، وعلى أساس أن وقف إطلاق النار هو اتفاق على أن يتعهد الفلسطينيون لوقف الإرهاب، أي المقاومة، مقابل أن تتوقف إسرائيل عن عملياتها ضدهم، أما من أبيدوا ومثل بجسسهم، وكذلك كل صور الإبادة المادية، فهي في نظر واشنطن أمر مشروع ما دام هدفها هو دفاع إسرائيل عن نفسها .

مما تقدم يتبين أن الهولوكوست الفلسطيني سواء من حيث سببه، أوحجمه، أوأساليب ممارسته، أوصوره، أوطبيعة من قام به، وهوالجيش الإسرائيلي وفق السياسة الرسمية للدولة العبرية وبمساندة أمريكية وتسليم أوربي وصمت عربي لا يمكن أن يقارن بالهولوكوست اليهودي، حتى ولوسلمنا أنه حدث فعلا، فهو أمر تحيطه الشكوك .

إذا كان الهولوكوست الفلسطيني على هذا القدر من الفداحة، فإن ذلك يثير أسئلة بالغة التعقيد، **أولها** : ضرورة التأكيد، على المستوى الدولي، أن حق المقاومة للشعب الفلسطيني بكل صورها لإجلاء الاحتلال الإسرائيلي حق مشروع قانونيا وتاريخيا، وأن استمرار الاحتلال ثم أعمال الإبادة هي جرائم وحشية .

والسؤال الثاني: يتعلق بمدى مصداقية الولايات المتحدة في قيادة العالم نحو غد يتسم بالعدل والاستقرار،كما يثير أيضا التساؤل حول دور الأمم المتحدة إزاء هذا التوحش الأمريكي والإسرائيلي.

وأما السؤال الثالث : فيتعلق بمصير مبادئ القانون الدولي، عندما يصبح الجاني هو المجني عليه، والضحية هوالقاتل، ولا بد أن نلاحظ بهذا الصدد، أن المجتمع الدولي ـ لسوء الحظ ـ لا يعترض إلا على ما أسماه "استخدام إسرائيل المفرط للقوة". أي أن لإسرائيل الحق

أصلا في استخدام القوة، ولكن الاعتراض هو على الجزء الزائد من هذا الاستخدام، وهذه مقولة تدعو إلى الأسف لأنها أصبحت جزءا من لغة الخطاب الدولي ، العربي، على المستوى الرسمي والإعلامي.

وأما السؤال الرابع : فيتعلق بمشكلة تفرض نفسها رغما عنا، وهي أن إسرائيل لا تعترف إلا بقانون القوة، وأنها لم تعمد إلى كسر إرادة الشعب الفلسطيني، وهوأعزل، وإنما عمدت إلى إبادة، بما يسمح لنا بافتراض أن الشك سوف يحيط بأي سلام بين إسرائيل والفلسطينيين، حتى على المدى البعيد، كما يسمح بالافتراض بأن سباق التسلح والصدام، ولو على المدى البعيد، أصبح جزءا من تصور العلاقة بين إسرائيل والدول العربية .

ونقطة الخلل في كل هذه المعادلات هي قيادة الولايات المتحدة للظلم، وقلب الحقائق، ومحاولة تكريس هذا الواقع في صورة قانونية .

ويترتب على ذلك أخيرا أنه ما دام الفعل الإسرائيلي لا يعد جريمة في نظر واشنطن، والأمم المتحدة، وأوربا، فإن تقديم الإسرائيليين المسئولين للمحاكمة الدولية يحيطه الشكوك أيضا كما يعيق ترتيب المسئولية الدولية على إسرائيل .

هذه هي الحقائق المتصلة بالحالتين اليهودية والفلسطينية والإطار الدولي المتباين، الذي نعرض فيه هاتين الحالتين، وهذا هو حجم التحدي المطروح أمام العالم العربي، وهذا هو جدول أعمال النضال العربي على كل المستويات دون تأخير .